من هدي السيرة النبوية

بناء المجتمع الإسلامي

في عصر النبوة

من خلال السيرة النبوية الشريفة

محمد توفيق رمضان

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بناء المجتمع الإسلامي

في عصر النبوة

الطبعة الاولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

عدد الطبع : ٢٠٠٠ نسخة

مطبعة بن سينا

اعتنى بتصحيحه

سمير أحمد العطار



للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - شارع مسلم البارودي بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٣١١ - هاتف ٢٢٥٨٧٧
بيروت - ص.ب ١١٣/٦٣١٨

المقدمة

الحمدلله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده

وأفضل الصلاة وأتم السلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد،

فإن المكتبة الإسلامية غنية ـ ولله الحمد ـ بكتب السيرة النبوية العطرة، على اختلاف أساليب عرضها ودراستها؛ إذ تفنن العلماء في عرضها، فهناك السرد التاريخي ورواية الأحداث، وهناك من اتجه إلى اقتباس الشمائل النبوية الكريمة وجمعها من كتب السنة المطهرة، والبعض من العلماء اقتصر على المغازي في السيرة.

وذهب بعض المؤلفين إلى صياغة السيرة النبوية أو المغازي بأسلوب النظم اللطيف.

واتجه بعض العلماء إلى دراسة السيرة، واقتباس ملامح من الهدي النبوي في شتى جوانب حياته ﷺ . فحاول عرض خصائص شخصيته عليه الصلاة والسلام، ومزاياه وحقوقه، وطبيعة علاقته مع الناس من حوله، وعلاقة أصحابه الكرام به عليه الصلاة والسلام.

كما اتجه بعض العلماء المعاصرين إلى دراسة السيرة النبوية دراسة تحليلية لأحداثها، بغية استفادة العبر والعظات، واقتباس الأحكام الشرعية والمفاهيم الإسلامية، من خلال عرض الأحداث، والتأمل في مغزاها.

أما هذه الصفحات التي بين يديك - أيها القارىء الكريم - فقد توجه الجهد فيها إلى دراسة ظاهرة عظيمة، لعل المرء لا يبالغ إن قال إن حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام كلها إنما كانت جهوداً متواصلة وسعياً حثيثاً إلى تحقيقها، كهدف عملي يمثل مضمون رسالته وخلاصة مهمته. هذه الظاهرة هي [قيام المجتمع الإسلامي].

ولا شك أن كل مسلم يحرص على معرفة الأسلوب الصحيح الواجب اتخاذه في سبيل تحقيق مثل هذه الظاهرة مرة أخرى، لأن قيام المجتمع الإسلامي يعني ترجمة الإسلام إلى واقع يتحقق في سلوك الفرد وعلاقات الناس، وليس مجرد أفكار تدرس في

صفحات الكتب، أو أحداث نتأملها في صفحات التاريخ.

لذلك فقد حاولت أن أفهم من خلال هذه الدراسة المنهج النبوي لإقامة المجتمع الإسلامي، كظاهرة جديرة بالتأمل، وحدث يشكل انعطافاً في تاريخ البشرية كلها.

حاولت أن أبحث كيف صاغ النبي ﷺ من تلك القبائل المتناحرة، والأمة الضائعة في متاهة الشرك والضلال مجتمعاً يترجم الإسلام إلى واقع يتحرك على صفحة التاريخ فيرسم أزهى صفحاته وأعظمها.

وكيف قام النبي ﷺ بتحويل الإسلام الذي أنزله الله سبحانه عليه، من سطور وأفكار ومبادىء ومعتقدات، إلى واقع وعلاقات وأمة تمضي في أرجاء الأرض لتصنع حضارة الإسلام، وتترجم مبادئه إلى سلوك وعمل.

في هذه المحاولة درست عوامل نشأة المجتمع الإسلامي كما ظهرت لي من خلال سيرة النبي عليه الصلاة والسلام.

ومن خلال هذه الدراسة يمكن أن نعلم أن هذه العوامل ليست إلا شروطاً لا بد منها لتكرار مثل هذه الظاهرة في أي عصر وفي أي مكان.

* * *

إن تحقيق قيام مجتمع إسلامي على الوجه الصحيح كالذي أقامه

النبي ﷺ حلم يراود ذهن كل مسلم، وأمل يعيش في قلب كل مؤمن ليتحقق من خلاله لهذا العالم الاستقرار بعد طول اضطراب والسعادة بعد طول شقاء.

* *

لعل للمتأمل في السيرة النبوية الشريفة أن يرى ظواهر رائعة جديرة بالدراسة والتأمل والتحليل، يمكن أن يستفيد منها القارىء المعاصر، ويمكن أن تكون في متناول الباحثين عن حل لمشكلات العصر المستعصية.

فالسيرة النبوية صورة عملية للإسلام الذي أنزله الله تعالى لتلبية حاجات الإنسان ومتطلباته الفطرية والملحة، كما أودعها الله فيه.

وبعد، فلست مدعياً السبق والابتكار، كما لا أريد أن أكون معتداً بوجهة نظر، متصلباً لموقف. إنما هي محاولة أسأل الله تعالى أن يجعل الإخلاص فيها رائدي وأن يجنبني الهوى والزلل، وأن يوفقني لمعرفة الحق واتباعه ومعرفة الباطل واجتنابه.

والحمدلله رب العالمين

محمد توفيق رمضان

الخميس في ٢٦/ ذي العقدة/ ١٣٩٦

لمحات عن أوضاع العرب في جاهليّتهم

قال الله تعالى: ﴿وإنْ كنتم مِن قبله لَمِنَ الضالين﴾

[البقرة: ١٩٨]

جزيرة العرب بما عرفت به من اتساع في الرقعة، وقدم في صفحات التاريخ، وقدسية في قلوب الناس لأنها كانت تضمّ مكة المكرّمة والكعبة المشرفة... جزيرة العرب هذه غفل عنها التاريخ حيناً من الدهر، وشغل عنها بدول عظمى تتصارع على سيادة الأرض، كدولة الفرس ودولة الروم المجاورتين لها، واللتين كانتا تزهوان بحضارة وعمران، وقوة وبأس، تتمثل فيما شيّدوه على الأرض من عمران أو دوّنوه في الكتب من مآثر وآداب وفلسفات ونظم، أو سيطروا عليه من أقطار.

أما جزيرة العرب، فلم يكن لها من ذلك كلّه نصيب، وهي وإن قامت على هوامشها دويلات، فإن تلك الدويلات لم تكن أكثر من إمارات تدين بالولاء لإحدى الدولتين الكبريين

كالغساسنة والمناذرة وأمراء البحرين واليمن. . . أو قبائل متطورة بعض الشيء غير أنها وبقية أنحاء الجزيرة لم تكن من الحضارة على شيء، بل كان شحّ الماء وقلّة ذات اليد والجهل يدفع بأبنائها إلى التناحر على موارد الماء، أو التفاخر بالبذل والعطاء وشاع فيهم المبدأ الذي عبّر عنه زهير بن أبي سلمى بقوله:

ومَن لم يذدْ عن حوضه بسلاحه
يهدم، ومَن لا يَظلمِ الناسَ يُظلم

أجل، لقد عاشت الجزيرة العربية قبل الإسلام بعيدة عن زخرف الحضارة المدنية، يتأرجح أهلها بين شمائل فطرية كريمة كالوفاء والنجدة والشجاعة والكرم والإباء، وبين عصبية قبلية تدفع بهم إلى ساحات القتال، حتى لقد كان تنافس أهلها بكريم الشمائل مغموساً في بحر من دماء العصبية الجاهلية.

وما مدح زهيرٌ الحارثَ بن عوف وهرم بن سنان في قصائده الشهيرة إلّا لأنهما أنهيا حرب عبس وذبيان. . «بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم» كما يقول في معلقته.

لقد عبّر القرآن الكريم عن أوضاع العرب عامة بقوله تعالى: ﴿**وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وإنه للضلال الذي أفقدهم المعايير الصحيحة لأمورهم.

ذلك الضلال الذي تجلّى في عقائدهم شركاً ووثنيةً وتبعية عمياء.

وتجلّى في أخلاقهم ـ مع ما تحلّوا به من المكارم ـ ظلماً وبغياً وفواحش، وانعدام شعور بالمسؤولية تجاه خالق عظيم يَلقونه بعد موتهم...

وضلالهم هذا هو الذي يفسّر واقعهم المتدني، ومنزلتهم من الأمم المجاورة لهم والتي لا يشفع لهم معها نشاطهم التجاري ولا طبيعة الإباء التي عرفوا بها، لأن ذلك كلّه لم يغيّر من واقعهم.

أما الضلال المتمثل في عقائدهم فهو ما آل إليه حالهم من الوثنية والشرك بعد الحنيفية التي تركهم عليها إسماعيل عليه الصلاة والسلام، والتي لم يبقَ من آثارها فيهم إلاّ الضئيل.

فالكعبة التي أقامها النبيان الكريمان إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام بتكليف من الله تعالى لتكون رمزاً لتوحيد الله تعالى؛ غدت موئلاً للشرك وملتقى للأصنام ومركزاً للوثنية!!

وهكذا طال على الناس الأمد فقست قلوبهم وفسق أكثرهم، وبلغ بهم الغي في الشرك والوثنية مبلغاً شنيعاً، فقد روى ابن إسحاق قال: «واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، فإذا أراد الرجل سفراً تمسّح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، وإذا قدم تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به

قبل أن يدخل على أهله، فلما بعث الله رسوله ﷺ بالتوحيد قالت قريش: ﴿**أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لَشيءٌ عُجاب!**﴾ [ص: ٥]. وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجّاب وتهدي لها كما تهدي للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده.

وبالإضافة إلى شركهم وعبادتهم الأوثان، فقد كانوا ينكرون البعث بعد الموت والحسابَ والجزاء والجنّة والنار، قال تعالى: ﴿**ق. والقرآن المجيد، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب، أئذا متنا وكنا تراباً، ذلك رجع بعيد**﴾ [سورة ق: ١ - ٢].

وقال تعالى مبيناً استنكار المشركين البعث من بعد الموت:

﴿**وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال: من يحيي العظام وهي رميم؟**﴾ [يس: ٧٨].

وهم إلى جانب ذلك كلّه كانوا ينهجون في عقائدهم منهج التقليد الأعمى لآبائهم وأسيادهم، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾ [الزخرف: ٢٢].

أما ما تجلّى من ضلالهم في أخلاقهم فإنا نستدرك قبل البدء فنقول: إن الحكم على المجموع ليس حكماً على الجميع، فقد تكون الظاهرة المنتشرة في عامة العرب غير موجودة في زمرة منهم، ولا ننكر أن يظل للفطرة عند كثير من الناس سلطانها على نفوسهم وتأثيرها على سلوكهم، من غير أن يكون ذلك ناجماً عن مقياس ثابت عندهم.

فالخمر كانت مفخرة عند العرب، حتى إن شاعر النبي ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه كان يقول في جاهليته عن الخمر:

ونشربها فتتركنا ملوكاً
وأسداً ما ينهنهنا اللقاءُ

ولكن كثيرين من الناس كانوا يأبون شرب الخمر، لما يرون من اغتيالها العقل وتأثيرها على شاربها.

وقد تمثل ضلال العرب في أخلاقهم في أمرين أساسيين:

أحدهما: أنهم مع توفر الخلال الكريمة والصفات الحسنة عندهم فقدوا الأسس السليمة التي توجه تلك الأخلاق فيهم نحو الوجهة الصحيحة، فالشجاعة ـ مثلاً ـ خلق كريم، ولكنها بسبب انعدام الموازين الصحيحة تتوجه بصاحبها إلى الفتك بالأبرياء والاعتداء على الحرمات، وتقذف بالناس إلى حروب ضارية مع بعضهم، وتكون في الوقت نفسه بنظرهم مفخرة ومثار اعتزاز!!.

والشهامة والحفاظ على العرض والكرامة والسمعة صفة من أكرم صفات العرب، ولكن الضلالة قذفت بهم من خلال هذه الصفة إلى ظلم الأنثى والفتك بها ووأدها خشية العار، بدلاً من تحمّل مسؤولية رعايتها وتربيتها وتوجيهها الوجهة الصالحة.

وهكذا تشوِّه الضلالةُ الأخلاقَ الرفيعة، وتهبط بها إلى حضيض المساوئ المنكرة.

والأمر الآخر: هو تلك الغوايات القبيحة، التي شاعت فيهم وانتشرت، والتفسخ الأخلاقي الذي تفشى. فأمة عرفت بالكرم قبيح أن يشيع فيها الربا ويتعارف الناس عليه، حتى إنهم ليرونه مثل البيع! وهو ذلك الاستغلال الجشع لظروف الناس الحرجة واحتياجاتهم.

وأمة عرفت بالمروءة مشين أن يشيع فيها الزنى وتقام له الدور علناً...

أخرج البخاري[1] عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها أخبرت عروة بن الزبير أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

فنكاح منها كنكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليّته

(١) رواه البخاري في النكاح رقم (٥١٢٧)

أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها.

ونكاح آخر، كان الرجل يقول لامرأته، إذا طهرت من طمثها، أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملُها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب. وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرّ ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل.

ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن. فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جمعوا لها، ودعوا لها بالقافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به ودُعي ابنه لا يمتنع من ذلك.

فلما بعث محمد ﷺ هدم نكاح الجاهلية كلّه إلا نكاح الناس اليوم».

هذا الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها يوضح مدى تدهور حال العرب خلقياً، وهم أهل العفة والإباء، نتيجة ضلالهم الذي أفقدهم الموازين الصحيحة والضوابط السليمة وشوّه فطرتهم التي فطرهم الله عليها.

* * *

وبعد، فهذه ومضات توضح ملامح عن أوضاع العرب في جاهليتهم أردتُ عرضها ليتبين للمرء بُعْدُ النقلة التي انتقلها العرب من واقعهم الجاهلي إلى ظلّ المجتمع الإسلامي الذي كتب الله له أن يحوِّل العرب خلال سنوات قليلة إلى أمة تمسك بزمام قيادة الإنسانية، وترفل بثياب العز والنصر، وترسم للإنسانية بأسرها الخط الصحيح في الحياة والتفكير.

هذا التحول تمّ في يوم من الأيام ويمكن أن يتم في كل عصر، لأنه نتيجة قانون إلهي أقام الله الحياة الإنسانية عليه ألا وهو ﴿**إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾ [الرعد: ١١].

ما هو المجتمع الإسلامي؟

المجتمع الإسلامي هو تلك المجموعة من الناس الذين يقيمون بينهم حياة مشتركة، ويدينون بالإسلام عقيدةً وشريعةً وخلقاً.

إنه مجتمع يدين بالإسلام في عقيدة عامة أبنائه وسلوكهم وعلاقاتهم، ويدين بالإسلام في التشريع الذي يدير شؤونه وعلاقاته بأن يقيمها وفق ما تضمنه كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ، انطلاقاً من الإقرار بالعبودية لله التي تستلزم الاحتكام إلى شريعته.

ولا تصح نسبة مجتمع ما إلى الإسلام إلّا إذا كان مسلماً لله في عقيدته أولاً، ثم في سلوكه وعلاقاته ثانياً، والإسلام إنما يتمثل في الانقياد المطلق لشرع الله وحكمه في جميع جوانب الحياة والسلوك، واحتكام المجتمع في أي جانب من جوانب حياته أو في أي شكل من أشكال علاقاته إلى منهج آخر إنما هو مظهر من مظاهر الشرك، ولا يصح اتصاف بشرك وانتساب إلى الإسلام بآن واحد.

أجل، لا يكفي لصحة نسبة المجتمع إلى الإسلام ادعاؤه، كما في تلك المجتمعات التي ترمي إلى حصر الإسلام بين زوايا المسجد، وكأنهم قد حصروا سلطان الله عليهم في (طقوس) يؤدونها إليه في بيته، ثم هم في خارج بيته... في شتى ميادين الحياة، لهم أوضاع أخرى.

كما لا يمكن أن يعتبر المجتمع إسلامياً بمجرد إقامة تشريع يشاكل الشرع الإلهي، في أمة لا تنتمي إلى دين الله في عقيدتها ولا في سلوكها، إذ الإسلام إذعان قلبي بالعبودية لله يترجمه السلوك بالانقياد لأمره واجتناب نهيه، وليس مجرد قانون يضبط بعض جوانب نشاطاتهم المدنية أو علاقاتهم الاجتماعية، دون أن تكون له صلة بتكوينهم الاعتقادي والتربوي والأخلاقي..

على أنه لا يتصور النجاح في محاولة تطبيق الإسلام وشرعه في مجتمع لا يؤمن بالله حقاً ولا يذعن له في قرارة نفوس أبنائه بالعبودية، التي يعبّر عنها بالانقياد له والمثول بين يديه سبحانه ساجداً وراكعاً، لأن من أهمّ مقومات إسلام المجتمع (العقيدة) التي تكمن في قلوب أبنائه، والتي تدفع بالمرء منهم إلى أداء واجبه شعوراً منه بالمسؤولية أمام خالقه، الذي يعلم ما في السموات والأرض، والذي لا تخفى عليه خافية، والذي قد لا يعاقبه في الدنيا؛ ولكن أعماله كلها مدوّنة ﴿**فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره**﴾... والملتقى بعد الموت..!

وليس هدف الشريعة في المجتمع الإسلامي تحرّي الجريمة، إنما هدفها معالجة ظاهرة الانحراف بالدواء الذي تضمنه حكم الله، والعقوبة الحقيقية ليست بيد أي إنسان، كما أنها ليست في الدار الدنيا التي نحياها الآن... إنما هي بيد الله وموعدها يوم يقوم الناس لربّ العالمين ﴿**يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية**﴾!.

هذا هو المجتمع الإسلامي، وهذه هي سماته العامة...

وإلى إقامته كان يهدف النبي ﷺ طيلة سنوات طويلة من الدعوة والجهاد والعمل والبناء، والتي سنرى ملامحها خلال صفحات هذا البحث.

عوامل نشأة المجتمع الإسلامي من خلال سيرة النبي ﷺ

قيام مجتمع يذعن بالعبودية لخالقه وحده، ولا يستمد شريعته إلّا من كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، يحتاج إلى جهد كبير ومجابهة مصاعب قاسية، ويتطلب صراعاً مع الخصوم وتربية طويلة للنفوس الضعيفة التي اعتادت الهبوط إلى الأرض... ومتاع الأرض.

وقيام هذا المجتمع ضرورة تقتضيها عبوديتنا لله والأمانة التي استخلفنا خالقنا للقيام بها، ولذلك لا بد من العمل على تجاوز كل المصاعب، وذلك بالإعداد الصحيح وبالمنهج الدقيق الواعي والبناء الصحيح وفق هدى الله تعالى، على يد أمناء يحملون على عاتقهم عبء إقامة شرع الله بإنشاء هذا المجتمع.

ولذلك فقد قضت سنة الله تعالى أن تكون نشأة المجتمع الإسلامي وليدة عوامل تتضافر في السعي الحثيث إلى إقامته،

وذلك ما كان فعلاً في عصر النبوة، وهو السبيل إلى تكرر قيامه مرة أخرى في أي عصر آخر إذا أريد له أن يقام. وهذه العوامل هي:

* الدعوة، وشخصية الداعي
* إعداد الفرد المسلم
* أسلوب العمل
* الدولة والحكم

وسنتناول بالبحث كل عامل من العوامل المذكورة في الصفحات التالية بعون الله تعالى.

١ ـ الدعوة . . . وشخصية الدّاعي

﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾

[الملك : ١ ـ ٢]

قضت سنة الله تعالى أن يكون قيام المجتمع الإسلامي الذي ينصاع لحكمه ويلتزم بتنزيله، ثمرة لجهد هذا الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض وائتمنه على إقامة منهجه وتطبيق شرعه، ومتّعه بمواهب يتمكن بها من تحمّل مسؤولية هذا العبء الذي استُخلف للقيام به، وبهذا قد ابتلاه، وبمدى ما يقدمه في هذا السبيل تكون مرضاة الله عنه ومثوبته له.

ولئن لم تقتضِ سنّة الله أن يقوم شرعه في الأرض (بمعجزة خارقة) من فوق قدرة الإنسان واختياره، بل جعله هو المسؤول عن ذلك، فقد كان من تمام حكمته سبحانه أن وهبه العقل الذي يهتدي به إلى الحق، والاختيار الذي يتوجه به إليه.

بيد أن الله سبحانه لم يترك الإنسان يتحمل هذه المسؤولية بعقله منفرداً، إذ العقل مع تمكنه من إدراك بعض جوانب الحق محدودٌ لا يملك الوصول إلى الإحاطة به بنفسه، وقد تغلبه الأهواء وتسيطر عليه الشهوات، وقد يلبس عليه بخديعة ـ والعقل قد يخدع!

نعم إن العقل وسيلة لوصول الإنسان إلى معرفة الحق ولكنه محدود الإمكانات لأنه إنما يملك أن يصل بنفسه إلى معرفة وجود الخالق مثلاً ووجوب عبوديته له وإقامة نظامه... ويدرك أنه مسؤول بين يديه ولكن عن أي شيء؟ وكيف يمارس مسؤولياته؟ ومن الذي يحدد له واجباته؟ إنه يدرك أنه عبد لله تعالى وعليه أن يطيع الله كما يريد الله وليس كما يريد هو!!

وما السبيل إلى معرفة ما يطلبه الله منه؟

ثم إن عقول الناس ليست سواء، وهل جميع الناس يحتكمون في مواقفهم ومعتقداتهم وسلوكهم إلى عقولهم؟ إن من الناس من لا ترضى نفسه إلّا باستعباد الآخرين والاستعلاء عليهم، وفي الناس من هانت نفسه حتى رضيت بالسجود للناس!!...

أين مكان العقل في تصرفات هؤلاء؟ ومن لعقولهم أن يوقظها ويهديها سواء السبيل.

لقد كان في العرب ـ كما ذكرنا في اللمحات التي أوردناها عن أوضاعهم قبل الإسلام ـ من بلغ بهم الضلال أن اندفعوا إلى

عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع، متبعين بذلك ما وجدوا عليه آباءهم اتباعاً أعمى بعيداً كل البعد عن تحكيم العقل، وما كان لهؤلاء العرب أن يعودوا إلى صوابهم لولا أن منّ الله عليهم بمن يدعوهم إلى الهدى والرشاد، ويصبر على الجدل السقيم واللغط التافه والمناوأة الضالة التي قابلوه بها حتى استعلن الحق وزهق الباطل... نعم ما كان لهم أن يهتدوا لولا الدعوة التي دعاهم بها النبي ﷺ، وإن كانوا من قبلها لفي ضلال مبين.

ولهذا فقد كان من تمام رحمة الله تعالى وفضله على عباده أن لا يحمل الناس مسؤولية التزام عبادته إلا بعد أن يؤيد العقل بالدعوة... على لسان رسل يدعون إلى الحق ويرشدون إلى الخير الذي تتقبله عقول من أراد بلوغ الحق والخير. قال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال: ﴿**ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى**﴾ [طه: ١٣٤].

وقال سبحانه: ﴿**وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون**﴾ [القصص: ٥٩].

الدعوة سبيل إقامة المجتمع الإسلامي، لأنها توقظ عقولاً من

سباتها، وتهديها بعد ضلالة إلى رشدها، وتضع الناس أمام مسؤولياتهم التي يطالبهم الله بها، والتي يتحقق بقيامهم بها قيام المجتمع الإسلامي.

إنها ذلك النداء الذي يبعث في الناس روح الهداية، ويبثّ في روعهم الشعور بالمسؤولية العظيمة التي تنتظرهم عواقبها في الدار الآخرة، إنها صوت الحق الذي يجب أن يصل إلى كل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

الدعوة حركة في الأفكار، وحياة في القلوب، ومقياس أمام أعين الناس... لا بل هي العين التي بها يرى الناس حقائق الأمور.

تُرى من يقوم بعبء هذه الدعوة وسط هذا الموج المتلاطم من الضلالات والانحرافات؟ قال تعالى: ﴿**يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾ [آل عمران: ٧٤].

وقال سبحانه: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ رداً على المتطاولين الذين قالوا: ﴿**لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله...**﴾ [الأنعام: ١٢٣].

إنه اختيار إلٰهي يختص به من يشاء وفق حكمته سبحانه وتعالى...

قضى هذا الاختيار أن يقوم بعبء هذه الدعوة أولاً الأنبياء

الكرام صلوات الله عليهم، مصابيح الهداية في الإنسانية، فيحملون عن ربهم الرسالة التي كلفوا بتبليغها والدعوة إلى مبادئها ليرسموا لأممهم طريق السعادة في دنياهم وآخرتهم، وكان خاتم هؤلاء الأنبياء وآخرهم سيدنا محمد ﷺ.

ومن خلال شخصية النبي الكريم سيدنا محمد ﷺ يمكن التعرف على شخصية الداعية، كما اختاره الله تعالى، وكما ينبغي أن يكون، لأنه ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ [الأحزاب: ٢١].

***

نبينا الكريم وإمام الدعاة ﷺ هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وُلد عليه الصلاة والسلام في بيت طاهر عريق عُرف بالسيادة والكرم والفضل في مكة. وكان أبو طالب عم النبي ﷺ وريث ذلك المجد عن أبيه عبد المطلب، سيد مكة وشريفها كمالاً وفعالاً، وهكذا أبوه ومن قبله...

عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»

أخرجه مسلم في الفضائل رقم (٢٢٧٦)

فبالنسب العريق والمكانة السامية الرفيعة عرف النبي ﷺ بين الناس منذ مولده، ولذلك لم يكن بيد أعدائه ﷺ مطعن يلتمسونه في شخصه ﷺ أو في نسبه، بل كان تاج قومه نسباً وشرفاً.

ولئن نشأ النبي ﷺ - مع عراقة نسبه - يتيماً، فقير الحال، قليل ذات اليد، فذلك لا ينتقص من قدره، لأن الفقر محك الرجال، به يعرف سمو النفس ودناءتها، ولقد عرف النبي ﷺ بسمو نفسه وعفَّتها، فقد سعى لكسب رزقه بكدّ يمينه من مطلع حياته، وقد حدَّث عليه الصلاة والسلام عن نفسه فقال: «كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة». ثم عمل بالتجارة، فتاجر بمال السيدة خديجة رضي الله عنها قبل زواجه منها.

وعُرف عليه الصلاة والسلام - وهو في المجتمع الجاهلي - بالخلق الرفيع الذي تميّز به بين قومه حتى لقب بالأمين، بل لقد أقر قومه بعد أربعين عاماً من حياته ﷺ بينهم «أنهم لم يجربوا عليه كذباً قط» بل كان أهل مكة - وهم يناصبونه العداء والمحاربة والتكذيب في دعوته - لا يجدون أحداً يأتمنونه على أموالهم غير النبيّ ﷺ.

كما عرف أيضاً بطهارة الإزار ونقاء العرض وكرم الخلق وسمو السمعة، حدّث عن نفسه - وهو الصادق المصدوق ﷺ - فقال: «ما

هممتُ بشيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني الله بالرسالة. قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب. فقال: أفعل. فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس، فجلست أسمع، فضرب الله على أذني، فنمت، فما أيقظني إلاّ حرّ الشمس. فعدت إلى صاحبي، فسألني فأخبرته، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت مكة فأصابني مثل أول مرة، ثم ما هممت بسوء»[1].

ولقد أقر أبو سفيان بصدق النبي ﷺ وخلقه ونسبه في الفترة التي كان فيها مشركاً يقود الجيوش لمحاربته، وذلك عندما سأله عنه هرقل ملك الروم. فقد أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس قصة لقاء أبي سفيان مع هرقل وكان فيما قاله:

«ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا... قال: فهل كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا...»[2] وقد علق هرقل على كلام أبي سفيان

(١) رواه الحاكم (٤/٢٤٥) وقال: صحيح على شرط مسلم، والطبراني، ورواه ابن الأثير.

(٢) رواه البخاري في بدء الوحي رقم (٧)، ومسلم في الجهاد رقم (١٧٧٣) بلفظ مقارب

بقوله: «. . . وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكـرت: أن لا، فقد أعـرف أنه لم يكن ليـذر الكذب عـلى الناس ويكذب على الله. . . ».

بهذه الصفات التي عرف بها كان موضع ثقة الناس وقبولهم، وهذه الثقة ضرورية جداً بالنسبة للداعين بين الناس، لأن الناس لا يأبهون بدعوة من عُرف فيهم بالكذب أو الخيانة أو سوء الخلق ولا يستجيبون له، بل لعلّ دعوة هذا الإنسان قد تكون سبباً في الإساءة إلى الفكرة التي يدعو إليها مهما كانت صالحة وخيّرة.

وكـان من جليل مـا تميّز بـه النبي ﷺ صفـات نجمت عن العصمة التي أحاط الله بها نبيه والعناية التي أولاه بها وهي صفات من صميم طبيعة الدعوة التي يدعو الناس إليها. . .

من هذه الصفات:

أ ـ إخلاصه ﷺ وتفانيه في دعوته:

وإخلاصه ﷺ في دعوته يلمسه كل منصف تأمل حيـاة هذا النبي الكريم ومواقفه من قومه وهم يناصبونه العداء، وحرصه على هدايتهم، ويلمسه كل منصف، عندما يرى كيف تجاوز إغراءات مشركي مكة التي أرادوا مساومته بها على دعوتـه التي شرفه الله بحملهـا. . . ورفضَها تمـاماً كـما رفض الـرضـوخ لتهـديـداتهم وسخرياتهم وسفاهاتهم وإيذائهم.

روى ابن هشام أن صناديد الشرك من زعماء مكـة اجتمعوا وأرسلوا إلى النبي ﷺ ليتحدثوا إليه، فظن أنهم قد بدا لهم في موقفهم منه رأي جديد، ولكنه عندما جلس إليهم كرروا عتابهم له وأبدوا استياءهم من دعوته، ثم عرضوا عليه أموراً لعلّه يرضى بها ويتخلّى عن هذه الدعوة التي أزعجتهم... فقالوا: فإن كنت إنما جئت بهذا الحـديث تطلب بـه الشرف فينا، فنحن نسـوِّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك ـ فربما كان ذلك ـ بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك.

فقال ﷺ : «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أمـوالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عـليّ كتابـاً، وأمرني أن أكـون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم»(١).

إنه نبي وليس طالب ملك ولا مبتغي مال... وهو حريص على القيام بما كلفه الله به من نشر الرسالة وهداية الناس، ولن يصده عن ذلك إغراء ولا تهديد.

ومن أعظم ما يلمس المتأمل فيـه الإخلاصَ، ذلـك الحرص

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٦.

الشديد، الذي ينبع من لوعة في القلب ورحمة تملأ جوانبه لهذه الأمة، على هدايتها وإخراجها من ظلمات الجاهلية... ولطالما قابل أذاهم وإساءاتهم بدعائه المشهور «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»...!

هذه الرحمة التي كانت تتقد في قلبه قد أورثت قلبه ألماً مبرحاً وأسى شديداً لإعراض قومه وصدهم عن نداء الحق حتى أنزل الله عليه قوله: ﴿**فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا**﴾ [الكهف: ٥]. وأنزل عليه قوله: ﴿**أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً؟ فإن الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون**﴾ [فاطر: ٨].

وقد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾. ولئن وصفته زوجه السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها «كان خلقه القرآن» فقد كان القرآن الكريم يوجِّهه بمثل قوله تعالى: ﴿**قل إني أُمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين. وأمرت لأن أكون أول المسلمين. قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. قل الله أعبد مخلصاً له ديني. فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين**﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٥].

وهو ﷺ إذ تحلّى بصفة الإخلاص قد رسم للدعاة الذين يأتمون به ويقتفون أثره الطريق الذي يبلِّغهم رضوان الله تعالى ويصل بهم إلى معارج النصر وأسبابه. ذلك لأن كل دعوة غير دعوة الإسلام إنما تستمد النصر من الاعتبارات الماديـة والإدراكات الإنسانية القاصرة إلا دعوة الإسلام فإنها لله ولن يبلغ القائمون عليها النصر من الله إلا إذا أخلصوا له السعي وصفت في قلوبهم له النيات. ولئن أمكن في الدعوات الأرضية المناداة بالشعارات المضللة والنفاق... ولئن كان يروج في أسواق المبادىء الوضعية الزيف والمخادعة فإن تلك الأساليب المضللة لا رواج لها هنا، لأن الله عليم بذات الصدور... يعلم ما في أنفسكم فاحذروه... ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور... ولأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

ب ـ صفاء السريرة تجاه الناس:

وهي صفة ناجمة عن الإخلاص وانعكاس عنه، فقد كان ﷺ متجرداً عن نفسه في دعوته، لأنه كان في دعوته إنما يؤدي واجباً كلفه الله به، لا يدعو لنفسه ولا من أجل إشباع غرور العظمة في كيانه... ولا من أجل شفاء غليل يعتلج في صدره، سواء في سلمه أو حربه، في لينه أو في شدته، في ضعفه أو في قوته... بل لقد عرف برقة القلب والمبادرة إلى العفو والمسامحة، حتى عن ألدّ أعدائه وأشدهم خصومة له.

كان يتمنى لقومه الهداية والنجاة من النار، في الوقت الذي كانوا لا يدعون فيه وسيلة من وسائل مقاومته ومحاربته إلا قابلوه بها، وكثيراً ما كان جوابه على إيذائهم وقبيح معاملتهم دعاءه لهم بالهداية.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قدم الطفيل وأصحابه فقالوا: يا رسول الله إن دوساً قد عَصَتْ وأبت، فادع الله عليها. فقيل: هلكت دوس. فقال ﷺ: «اللهم اهدِ دوساً وائتِ بهم»[1].

وثقيف هم الذين ردوا النبي ﷺ الرد المنكر يوم استنصر بهم من أذى قريش، ولم يكتفوا برفض نصرته والاستخفاف به بل سلّطوا عليه سفهاءهم يرمونه بالحجارة بعدما غادر الطائف... ثقيف هؤلاء حاصرهم النبي ﷺ بعد الفتح. فاستعصت عليه حصونهم ولم يمكنه أن يقتحمها عليهم ونال المسلمين منهم أذى شديد وسقط شهداء كثر... وعاد النبي ﷺ دون أن تفتح ثقيف أمام جيشه، فقال المسلمون للنبي ﷺ: يا رسول الله، ادع على ثقيف فقال: «اللهم اهدِ ثقيفاً وائتِ بهم مسلمين[2]».

---

(١) رواه البخاري في الدعوات رقم (٦٣٩٧) والجهاد رقم (٢٩٣٧) والمغازي رقم (٤٣٩٢)، ورواه مسلم في فضائل الصحابة رقم (٢٥٢٤)
وانظر في حياة الصحابة ج ٣ ص ١٤٦.

(٢) انظر عيون الأثر لابن سيد الناس ج ٢ ص ٢٠٢.

لم يكن في قلب هذا النبي الكريم مكان للحقد أو للغل،وكيف يكون في قلبه حقد وهو يدعو إلى الله؟! وما الحقد إلا نزوة نفسية ترسبت في القلب، تولدت عن اصطدام النفس بحواجز حالت دون تحقيق رغباتها وشهواتها من الآخرين. . . !

وأين الرغبة والشهوة النفسية من قلب من يبتغي بعمله وجه الله؟!. . . إنه يجب أن تذوب كل الأهواء أمام الغاية العظمى التي يصبو إليها. . بل يجب أن يكون هواه تبعاً للدعوة التي ينادي بها. . . لوجه الله.

ج ـ الصبر:

والصبر صفة لا تتولد في النفس من تلقاء ذاتها، بل هي أثر لتربية يتميز بها المنهج الإلهي، أثر لليقين الذي يترسخ في قلب المؤمن، أثر للثقة بالله التي تسكب في قلبه الطمأنينة. . . فإذا هو يصبر مهما طال الطريق ومهما كثرت الشدائد ومهما تلاحقت العقبات. . . يصبر والأفق أمامه مديد فسيح أوسع من الحياة التي يحياها في هذه الدنيا، يصبر لأنه يستمد النصر والتأييد من الله، والله غالب على أمره. . . يصبر لأنه يعتقد أن الصبر لون من ألوان العبادة التي نذر نفسه لها. . . وعاهد ربه على القيام بها ما دام قلبه ينبض بالحياة.

ويتجلّى صبر النبي ﷺ من خلال أيام مكة الحافلة بألوان

الشدائد والآلام. . . فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يكف عن السير مع وعورة الطريق، ولا يقف عن الدعوة مع قلة المستجيبين، بل كان دائم العمل متواصل الجهاد. . . على طريق الدعوة. . . صابراً على استهزاء المستهزئين ومناوأة الكفرة.

وقد بدأت مصاعب الطريق منذ بدايته، واستمرت حتى النهاية. . . دون أن تنال من عزيمته واندفاعه.

روى ابن هشام عن ابن إسحاق أن النبي ﷺ لما صده أهل الطائف غداة مجيئه إليهم يطلب النصرة ويدعوهم إلى دين الله أساؤوا ردّه وسلّطوا عليه سفهاءهم وأراذلهم يرمونه بالحجارة، حتى أدموا عقبيه وشجّوا رأس مرافقه زيد بن حارثة رضي الله عنه. . . وعاد النبي ﷺ أدراجه إلى مكة حتى إذا اطمأن إلى ظل حائط وقف يدعو قائلاً: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى قريب ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

. . . إنه يتألم ويشكو. . . ولكن إن لم يكن ما يراه في طريقه

من المصاعب لغضب من الله عليه فإنه لا يبالي وسيتابع الطريق. . . سيصبر حتى يبلغ مرضاة الله.

وكان يدفع أصحابه إلى الصبر على آلام المحنة وشدائدها ويعتب عليهم استعجالهم قطاف الثمار قبل أوانها.

أخرج البخاري عن خباب رضي الله عنه أنه قال: «أتيت النبي ﷺ وهو متوسِّد ببردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد ـ وهو محمر وجهه ـ فقال: لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عز وجل والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

وأخيراً فقد عُرف النبي ﷺ بصفة هامة جداً يفتقر الدعاة اليوم إلى تفهُّمها. . . وإلى التحلي بها مع سائر الصفات الأخرى، ألا وهي:

د ـ زهده ﷺ

والزهد منه ﷺ هو الفهم الصحيح لحقيقة الدنيا ومتاعها وما تستأهله من اهتمام المسلم وتفكيره. . . الزهد في الدنيا استعلاء

---

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار رقم (٣٨٥٢). وانظر: حياة الصحابة ج ١ ص ٤٣٣.

على متاعها التافه في نفس ذلك المؤمن الذي عرف السعادة الحقيقية فأخذ ينشدها ويسعى للوصول إليها... ويتزود من الدنيا ما يتبلّغ به إلى غايته...!

الزهد في الدنيا عزوف عن الاطمئنان إلى زائل، وبُعْد نظر في معرفة قيمتها الحقيقية وإنها إنما هي قوت يستعين به المؤمن للوصول إلى الآخرة... وظِلٌّ يستظل به بين الفينة والأخرى في طريق الرحلة التي عرف المؤمن نهايتها...! وليست بدار خلود ولا موطن إقامة... وليس نعيمها بالظل الذي يُطمأن إليه... وأنى يُطمأن إلى زائل...؟!

ولا يزهد في الدنيا إلا من عرف الآخرة، ولا يستهين بمتاعها إلا من استيقن وعْد الله للصالحين في جنّته فسعى لاستحقاقه.. **﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى يوم يتذكر الإنسان ما سعى وبُرِّزت الجحيم لمن يرى، فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾** [النازعات: ٣٤ - ٤١].

والنبي ﷺ كان أعرف الناس بحقيقة الدنيا ولذلك فقد كان أزهد الناس فيها... ولو طلب الملك فيها لناله، ولو طلب القصور والجواهر ولذائذ العيش لكانت طوع يديه، ولكنه كان يرى ذلك كله أتفه من أن يطلبه... لأنه قليل ورخيص، بالنظر إلى وعد الله ورضوانه!.

أخرج أحمد وابن حبان والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر رضي الله عنه وهو على حصير وقد أثر في جنبه، فقال: يا رسول الله لو اتخذتَ فراشاً أوثر من هذا؟ فقال: «ما لي وللدنيا! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها[1]»!!

وأخرج البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفه مثنية فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف. فدخل عليّ رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: قلت: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك فذهبت فبعثت إلي بهذا، فقال: «رديه يا عائشة فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»[2].

... إنه ﷺ نبي كان يرجو رحمة ربه ومثوبته في آخرته ورضوانَه في جواره، ولم يكن طالب ملك ولا باغي مال ولا زعامة... لم يكن ليهبط إلى الأرض ومتاعها التافه وقد عرف السعادة الخالدة الحقيقية... لم يكن ليركن إلى الظلّ الزائل أياماً من العمر محدودة، وقد وعده الله تعالى المقام المحمود في جنان الخلود...!

بهذه الصفات التي ذكرتها وبصفات أخرى وشمائل كريمة كثيرة

---

(١) و(٢) حياة الصحابة ج ٢ ص ٥٠٠.

قد تحلّت شخصية النبي ﷺ،لتكون بذلك القدوة الحسنة التي يأتمّ بها الدعاة.

وإن هذه الخلال الكريمة لا تُكتسب بالتكلف والافتعال، إنما تنطبع في نفس المرء إذا أنصت للتوجيه القرآني وملأ قلبه نور الإيمان وسكينة اليقين... هذه الخلال تتحلى بها النفس عندما تتعرف على حقيقة الحياة ومعناها... وتثق بالله ويملأ كيانها حب يذوب أمامه التعلق بالمظاهر الزائلة والشهوات التافهة...

إن المجتمع الإسلامي لا يقوم إلا بدعوة توقظ قلوب الناس وتدفعهم إلى القيام بمسؤولياتهم أمام خالقهم، وإن الدعوة لا يحملها إلا رجال عرفوا الله حق المعرفة فعبدوه بخوف ورجاء وحب... وعرفوا الدنيا على حقيقتها فعزفوا عن التعلق بها واتخذوها جسراً إلى آخرتهم وقوتاً يتزودون به لبلوغ مرضاة ربهم.

وما لم يتوفر رجل الدعوة، الذي يتصف بفضائل الأخلاق وصفاء الغاية ووضوح الفكرة، فإن الأمة تظل أمام المفترق، لا تملك أن تتجاوزه إلى سبيل الهداية حتى يقيض الله لها ذلك الرجل...

هذا إذا لم تقذف الأهواء والشرور بها إلى سبل الضلالة والفساد، وعندئذٍ ينزل بها الخطر الماحق والعياذ بالله تعالى.

٢ ـ إعداد الفرد المسلم

بُعث النبي ﷺ عندما بلغ من العمر أربعين سنة، وأمضى بعد بعثته في مكة ثلاث عشرة سنة، وأمضى بعدها في المـدينة عشر سنوات، ثم لحق بالرفيق الأعلى ﷺ .

وقد انصبّ التوجيه الإلهي في الفترة المكية على إعـداد الفرد المسلم، نظراً لأهمية الفرد كنواة للمجتمع الإسلامي تتمتع بجميع مؤهلات المسؤولية، ولأن كل أفراد المجتمع متساوون من حيث الأصل الإنساني في الحقوق والواجبات، ولا تميز لفرد على فرد ولا لجماعة على جماعة ابتداء من القـائمين عـلى قيادة هـذا المجتمع وانتهاء عند أصغر فرد فيه، وإنما يتميزون بالتقوى، والتقوى إنما يتضح أمرها في دار الجزاء، حيث ينال الناس من الله أجـرهم وثوابهم وعلوّ منزلتهم.

ولذلك فإن الناس ـ في الإسلام ـ ليسوا قطيعاً يسير كما تشاء عصا الراعي، بل إن لكل فرد منهم شخصيته الكاملة المتميزة التي

يجب أن ينطلق بها لأداء دوره ضمن المجتمع، داعياً لفكرته منطلقاً من قناعته شاعراً بواجبه مختاراً لمنهجه، والله تعالى يقول:

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [المدثر: ٣٨].

ولأن الناس عندما يبعثون يوم القيامة للمثول بين يدي ربهم سبحانه وتعالى يحاسب كل فرد منهم على انفراد، دون اعتبار لمذهب أبيه أو رئيسه أو معلمه، وإن كان لهؤلاء تأثير عليه فإنه مسؤول عن تجنب ذوبان شخصيته وانقياده الأعمى لهم، قال تعالى:

﴿قالَ آدخُلوا في أُممٍ قد خَلَتْ من قبلِكم مِنَ الجنِّ والإنسِ، كلَّما دخلَتْ أُمَّةٌ لعنَتْ أُختَها حتى إذَا ادّارَكوا فيها جميعاً قالتْ أُخراهم لِأولاهم: ربنا هؤلاء أضَلُّونا، فآتِهم عذاباً ضِعفاً مِنَ النارِ، قالَ لكلٍّ ضعفٌ ولكن لا تعلمون﴾ [الأعراف: ٣٨].

إن أكثر الاتجاهات والمبادىء الوضعية في الدنيا تقود الناس كالقطعان لا تبالي بإراداتهم وقناعاتهم وتتصور حقها في استبعادهم وفرض الطاعة عليهم، ولو باسم الحرية والإنسانية. وتهون في المقابل على الخانعين أنفسُهم فينقادون لأناس أمثالهم... وقد يبلغ بهم الانقياد والطاعة العمياء تكوين مجتمعات وجيوش وإثارة حروب ضد أمم هنا وهناك، وليس لهم في ذلك رأي ولا اختيار، إنما هي الطاعة لمن دانوا لهم بالخضوع.

إن الحرية عند هؤلاء ليست إلا شعاراً فارغاً يُرفع من أجل التضليل.

أما الإسلام، فقد ابتدأ بالفرد، يشعره بمسؤوليته ويضعه أمام الحق الناصع والحجة الدامغة، ثم ينهضه للقيام بواجبه مرغباً إلى الخير بالمثوبة ومحذراً من الشر بالعقوبة، موقظاً مشاعره بتعريفه على خطر المسؤولية أمام الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية...

إن إعداد الفرد وتربيته شرط أساسي لا يمكن تجاوزه في طريق العمل لإقامة المجتمع الإسلامي، وهو شرط ينسجم مع طبيعة الإسلام عقيدةً ومنهاجاً.

وقد تناولت الفترة المكية الفرد لإعداده بالأمور التالية:

١ ـ تصحيح العقيدة.
٢ ـ التربية الربانية.
٣ ـ الابتلاء والمحنة.

ويجدر بنا أن نقف عند كل جانب من هذه الجوانب التي اختصت الفترة المكية بإعداد المسلمين بها، من خلال أحداث السيرة أثناء هذه الفترة، وأن نتأمل الأحداث ونتدبرها جيداً. ولنبدأ بتصحيح العقيدة.

أ ـ تصحيح العقيدة

وجود الخالق سبحانه وتعالى، هو التفسير العلمي الصحيح لقيام هذا الكون وانتظامه، وهو الحقيقة التي نؤمن بها ويذعن لها كل منصف يتأمل في خلق السماوات والأرض، بل يذعن لها ويؤمن بها كل من يتأمل نفسه وما أودع الله فيه من دلائل حكمته وعظيم قدرته سبحانه وتعالى.

وهذه الحقيقة هي الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الإسلامي في عقيدته وشريعته ونظام حياته، لأن هذا المجتمع إنما يقوم إذعاناً بالعبودية لله، وانقياداً لحكمه.

ولذلك، فإن الخطوة الأولى التي لا بد منها لتتم النقلة من الواقع الفاسد إلى ظل مجتمع إسلامي، إنما هي تقويم العقيدة حتى تغدو متفقة مع هذه الحقيقة والحقائق الأخرى المستندة إليها، ومن هنا فقد توجهت العناية كلها خلال الفترة المكية نحو تصحيح عقيدة الناس منذ اليوم الأول ليمكن انقيادهم لحكم الله، وبالتالي يمكن قيام المجتمع الإسلامي بهم.

ويتضح مدى ما بذل من التوجيه، وكرس من التربية، لبلوغ هذه الغاية لكل متأمل في طبيعة الآيات القرآنية التي نزلت في مكة والمواضيع التي تناولتها بالمقارنة مع ما أنزل الله على نبيه خلال الفترة المدنية، كما يتضح ذلك أيضاً في أحداث السيرة خلال الفترة

المكية، وفي الأهداف المباشرة للدعوة في تلك الفترة إذا ما قيست بالمرحلة المدنية من حياته ﷺ، ومع العلم بأن النبي ﷺ أقام بعد البعثة في مكة ثلاثة عشر عاماً، بينما كانت إقامته في المدينة بعد ذلك لبناء المجتمع الإسلامي، ولتطبيق ما يوحى إليه من التشريع، وللقيام بمستلزمات تلك الفترة من الأعمال العسكرية دفاعاً وهجوماً. كانت إقامته فيها لتحقيق ذلك كله لا تزيد على عشر سنوات فقط كانت ختام حياته ﷺ.

بدأت الفترة المكية يوم نزل عليه الوحي في غار حراء إيذاناً بنبوّته، وتكليفاً بحمل عبء الرسالة بعد إعداد طويل خضع له النبي ﷺ.

وقد تمثل ذلك الإعداد فيما حبب إلى النبي ﷺ من الخلوة لعبادة الله وذكره ثم الرؤيا الصادقة التي كانت مقدمة للوحي.

عن ابن إسحاق قال: ذكر الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أنها حدثته: أن أول ما بُدىء به النبي ﷺ من النبوّة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به؛ الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح. قالت: وحبب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده[1].

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٣٤.

وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها نحوه وفي حديثهما عن بدء الوحي (واللفظ لمسلم): «ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها. حتى فَجِئَه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال فأخذني فغطني حتى أخذ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قال: قلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره[1] (وعند البخاري: يرجف فؤاده)، حتى دخل على خديجة فقال: «زملوني زملوني!» فزملوه، حتى ذهب عنه الروع. ثم قال لخديجة «أي خديجة، مالي؟!» وأخبرها بالخبر، قال: «لقد خشيت على نفسي» قالت خديجة: كلا، أبشر! فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدومَ، وتقري الضيفَ، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد

(١) بوادره: اللحم الذي بين المنكب والعنق يضطرب عند الغضب.

العزى، وهو ابن عم خديجة رضي الله عنها، أخي أبيها، وكان امرءاً قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبري، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب (وعند البخاري: وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل ما شاء الله له أن يكتب) وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة: أي عم، اسمع من ابن أخيك. قال ورقة بن نوفل: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أُنزل على موسى ﷺ. يا ليتني فيها جذعاً، يا ليتني أكون حياً حين يُخرجُك قومك. قال رسول الله ﷺ «أومخرجيَّ هم؟!» قال ورقة: نعم! لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[1]». ا. هـ

كان نزول الوحي على النبي ﷺ بداية عهد جديد في حياة البشرية، ابتدأ من شخص النبي ﷺ يوم اتصل عالم السماء بعالم الأرض لينقل إلى هذا العالَم رسالة الله التي كتب له السعادة بها فيما تضمنته من عقيدة وشريعة وعبادة وأخلاق.

وكان نزول الوحي بداية عهد جديد في حياة النبي ﷺ وفي علاقته مع مجتمعه فكان عليه أن يقطع خلوته وأن ينزل إلى المجتمع ليصلح ما عاثت يد الضلالة فيه... ولم يكد النبي ﷺ يعود إلى هدوئه وسكينته بعد ذلك اللقاء المثير الذي تم بينه وبين

(١) رواه البخاري في بدء الوحي رقم (٣)، ومسلم في الإيمان رقم (١٦٠)

جبريل عليه السلام والذي جعله يعود لاهثاً إلى بيته يقول: دثِّروني دثِّروني... لم يكد الدفء يسري في أوصاله من جديد حتى عاوده الوحي يستحثه للمباشرة بالعمل بنداء علوي جليل ﴿يا أيُّها المدَّثِّر، قُمْ فأنذِر، وربَّكَ فكبِّر، وثيابَك فطهِّر، والرجزَ فاهجُر، ولا تمنُن تستكثِر ولربِّك فاصْبِر...﴾ [المدثر: ١ - ٦].

يا أيها المدثر قم...! نداء إلهي وضع بداية لعهد جديد في حياة النبي ﷺ عهد كله جهاد وعمل وصبر ومجالدة حتى يكتب الله للمجتمع الإسلامي أن يقوم...

ولقد باشر النبي ﷺ العمل بالدعوة أولاً إلى العقيدة الصحيحة...

أخرج مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ورهطك منهم المخلصين[1] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فصاح: «يا صباحاه» فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه. فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب» فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقيّ؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين

(١) قال النووي: الظاهر أن هذا كان قرآناً أُنزل ثم نسخت تلاوته، ولم ترد هذه الزيادة في روايات البخاري.

يدي عذاب شديد. . .» قال: فقال أبـو لهب: تباً لـك! ألهذا جمعتَنا؟ ثم قام. فنزلت هذه السورة: تبت يدا أبي لهب وتب. . . إلى آخر السورة.

* * *

لقد كان انتزاع العقائد الفاسدة من عقول الناس مهمة شاقة وخطيرة، تعترضها تحديات ومصالح أناس قد أقيمت على أساس تلك العقائد، وتعترضها تبعية عمياء وعصبية عنيفة.

ومع ذلك فقد كان لا بد من تجشُّم هذه المشاق والمصاعب، لأن هذه هي بداية الطريق!

والقضايا الاعتقادية التي كرست الدعوة لها خلال هذه الفترة إنما تمثل أسس التصور الإسلامي للكـون والإنسان والحيـاة من خلال:

- الإيمان بوحدانية الله.
- الإيمان بنبوة سيدنا محمد ﷺ.
- الإيمان باليوم الآخر.

بـالإضافـة إلى تصحيح بعض التصـورات الخاطئـة عن عالم الغيب. . . وذلك بأسلوب عقلي واضح مؤيد بالحجج القاطعـة البينة.

وقد توجه النبي ﷺ أول الأمر بالدعـوة إلى من يثق بهم من الأقرباء والأصدقاء، فخصّ بالدعوة زوجه التي بادرت ـ رضي الله عنها ـ إلى الإسلام، وجنّدت نفسها لخدمة النبي ﷺ بكل ما لديها من إمكانات. ودعا أيضاً صديقه أبا بكر رضي الله عنه الذي بادر إلى الإسلام دون تردد أيضاً، ثم توجه إلى سائر أقاربه وأصدقائه ممن يثق بهم ويظن فيهم الاستجابة...

وقد أوردت السيرة صوراً لدعوته ﷺ قومه إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام تعبر عن الأسلوب في عرض الفكرة ضمن إطار مقتضيات الفترة التي يمرّ بها النبي ﷺ منذ اليوم الأول من دعوته إلى أن بدأت المجابهة بينه وبين زعماء الشرك.

أخرج الحافظ أبو الحسن الطرابلسي عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج أبو بكر رضي الله عنه يريد رسول الله ﷺ وكـان صديقاً له في الجاهلية ـ فلقيه فقال: يا أبا القاسم: فقـدت من مجالس قومك واتهموك بالعيب لآبائهم وأمهاتهم... فقال رسول الله ﷺ : إني رسـول الله، أدعوك إلى الله...، فلما فـرغ من كلامه أسلم أبو بكر، فـانطلق عنـه رسول الله ﷺ ، ومـا بين الأخشبين أحدٌ أكثر سروراً منه بإسلام أبي بكر. ومضى أبو بكر، فراح لعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد ابن أبي وقاص فأسلموا، ثم جاء الغـد بعثمان بن مـظعون وأبي عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وأبي سلمة بن عبد الأسد

والأرقم بن أبي الأرقم فأسلموا رضي الله عنهم. كذا في البداية ج٣ ص ٢٩[١].

وذكر ابن إسحاق أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه جاء وهما ـ أي النبي ﷺ وخديجة رضي الله عنها ـ يصليان، فقال علي: يا محمد، ما هذا؟ قال: دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته، وأن تكفر باللات والعزى. فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاضٍ أمراً حتى أحدِّث به أبا طالب. فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: يا علي، إذا لم تسلم فاكتم. فمكث عليّ تلك الليلة، ثم إن الله أوقع في قلب عليٍّ الإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال: ماذا عرضت عليّ يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: تشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد. ففعل عليّ وأسلم...»[٢].

وأخرج ابن خزيمة عن عمران بن الحصين أن قريشاً جاءت إلى والده (الحصين) ـ وكانت تعظمه ـ فقالوا له: كلِّم لنا هذا الرجل، فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم، فجاؤوا معه، حتى جلسوا قريباً

---

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٨٤.
(٢) حياةالصحابة ج ١ ص ٨٨.

من باب النبي ﷺ ، فقال: أوسعوا للشيخ ـ وعمران وأصحابه متوافرون ـ فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم، وقد كان أبوك حصينة وخيّراً[1]؟ فقال: يا حصين، إن أبي وأباك في النار! يا حصين! كم تعبد من إله؟ قال: سبعاً في الأرض وواحداً في السماء. قال: فإذا أصابك الضر مَن تدعو؟ قال: الذي في السماء. قال: فإذا هلك مالُك من تدعو؟ قال: الذي في السماء. قال: فيستجيب لك وحده وتشركه معهم؟! أرضَيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟ قال: ولا واحدة من هاتين، قال وعلمت أني لم أكلم مثله! . قال: يا حصين، أسلم تسلم. قال: إن لي قوماً وعشيرة فماذا أقول؟ قال: قل اللهم أستهديك لأرشد أمري وزدني علماً ينفعني. فقالها حصين، فلم يقم حتى أسلم. فقام إليه عمران فقبّل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى وقال: بكيت من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر، فلم يقم عمران ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقه، فدخلني من ذلك الرقة. فلما أراد حصين أن يخرج، قال لأصحابه: قوموا فشيعوه إلى منزله. فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا: صبأ. وتفرقوا عنه[2].

---

(١) حصينة: عاقلاً متحصناً بدين آبائه وأجداده (كذا في حاشية حياة الصحابة طبعة دار القلم).

(٢) الإصابة ج ١ ص ٣٣٧، وانظر حياة الصحابة ج ١ ص ٩٩.

وهكذا كان يتوجه النبي ﷺ إلى قومه، يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته. ونبذ عبادة الأصنام، وقد أثارت دعوته صناديد الشرك وزعماء مكة فغضبوا لأصنامهم وقاموا بمناهضة دعوة النبي ﷺ بشتى الأساليب.

﴿وعَجِبوا أن جاءَهم منذرٌ منهم وقالَ الكافرونَ هذا ساحرٌ كذّابٌ، أجعلَ الآلهةَ إلَهاً واحداً؟ إن هذا لشيءٌ عُجاب! وانطلقَ الملأُ منهم أنِ آمْشُوا واصبِروا على آلهتِكم إن هذا لَشيءٌ يُراد. ما سَمِعْنا بهذا في المِلَّةِ الآخرةِ... إن هذا إلا اختلاق﴾ [ص: ٤ - ٧].

ولم يدعهم القرآن يعجبون فقد برهن لهم على وحدانية الله ببراهين عقلية واضحة وبيّنة:

﴿قُلْ لو كان فيها آلهة إلّا الله لفسدتا. فسبحان الله عما يشركون﴾. [الأنبياء: ٢٢]

﴿أمَّن خلق السمواتِ والأرضَ وأنزلَ مِنَ السماءِ ماءً فأنبَتْنا به حدائقَ ذاتَ بهجةٍ ما كان لكم أن تُنبتوا شجرَها؟ أإلَهٌ معَ الله؟ بل هم قومٌ يعدِلون. أمَّنْ جعلَ الأرضَ قراراً وجعل خِلالَها أنهاراً وجعل لها رواسيَ وجعل بين البحرينِ حاجزاً؟ أإلهٌ معَ الله؟! بل أكثرُهم لا يَعلمون. أَمَّنْ يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاه ويكشفُ السوءَ ويجعلُكم خلفاءَ الأرضِ؟ أَإلهٌ مَع الله؟ قليلاً ما تذكّرون. أَمَّنْ

يهدِيكم في ظلماتِ البرِّ والبحرِ ومَن يرسلُ الرياحَ بُشراً بينَ يَدَيّ رحمتِه؟ أَإلهٌ مَعَ الله؟ تعالى الله عمّا يُشركونَ. أَمَّنْ يبدؤ الخلق ثم يعيدُه ومَن يرزقُكم مِنَ السماءِ والأرضِ؟ أَإلهٌ مَعَ الله؟ قلْ هاتوا برهانَكم إن كنتم صادقين﴾. [النمل: ٥٩ ـ ٦٤].

أمام هذا النقاش العقلي لا يملك المشركون إلّا حجة واحدة هي ﴿**إنا وجدنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارهم مقتدون**﴾. [الزخرف: ٢٣]

ولعلّ دعوة الناس إلى الإيمان بنبوة محمد ﷺ هي في المتسوى نفسه من الأهمية بالنسبة للدعوة إلى توحيد الله، لأن الإذعان لحكم الله إنما يتم بتصديق رسالة المبلِّغ لذلك الحكم ﷺ.

وقد واجهت الدعوة إلى الإيمان برسالة النبي ﷺ إنكاراً شديداً مردُّه التشبث بعقيدة الشرك الموروثة من الآباء عند كثير من الناس... وعند آخرين التبعية العمياء لموقف زعماء قريش... ومردّه عند فريق ثالث إنما هو التكبر والاستعلاء والخوف على المراكز التي يتمتعون بها عند قومهم...!

ويأتي جحود المشركين برسالة النبي ﷺ وامتناعهم عن الإيمان بنبوته وتكذيبهم له متناقضاً مع ما كانوا يقرون به من صدق النبي ﷺ وأمانته ورفعة خلقه، ويظهر هذا الجحود والتكذيب والمكابرة الواضحة والعناد الأعمى أمام كل الأدلة والبراهين الدالة على صدق النبي ﷺ في نبوّته ورسالته.

لقد عُرف النبي ﷺ طيلة أربعين عاماً في قومه بالصدق فلم يعهدوا عليه كذباً قط، ولقبوه بالأمين... حتى إذا برز الشيب في فوديه بدا لهم أن يتهموه بالكذب تهرباً من الإذعان برسالته والإقرار بنبوته وتبريراً لموقفهم في رفض الإسلام.

أخرج البيهقي عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ أني أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم، هلم إلى الله وإلى رسوله، أدعوك إلى الله (وإلى كتابه، أدعوك إلى الله...) فقال أبو جهل: يا محمد، هل أنت منته عن سبِّ آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلّغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك!!

فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليَّ فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن يمنعني شيء، أن بني قصي قالوا: فينا الحجابة. فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا اللواء. فقلنا: نعم. ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الرُّكَب قالوا: منا نبي! والله لا أفعل[1]!!

---

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ١١٢ وهو في البداية ج ٣ ص ٦٤ والكنز ج ٧ ص ١٢٩.

وتشير أخبار السيرة النبوية إلى ما وقع فيه المشركون من الحيرة لتبرير موقفهم من دعوة النبي ﷺ وتخبطهم في ذلك، فتارة يحاولون إغـراءه، وأخرى يؤذونـه، ومرة يتهمـونه بـالسحر أو الشعـر أو الكهانة أو الجنون.

روى ابن إسحاق أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً ـ قال يوماً ـ وهو جالس في نادي قريش ـ والنبي ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها فنعطيه أيَّها شاء ويكفّ عنا، ـ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثرون ويزيدون ـ فقالوا: بلى، يا أبا الوليد، فقم إليه فكلِّمه. فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسـول الله ﷺ ، فقال: يـا ابن أخي، إنك منـا حيث قد علمت من السِّطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنـك قد أتيت قـومك بـأمر عـظيم، فـرّقت بـه جمـاعتهم، وسفّهت بـه أحلامهم، وعبت به آلهتهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم. فاسمع مني، أعرض عليك أموراً لتنظر فيهـا، لعلك تقبل منـا بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد، أسمع. قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً، سوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمـراً دونك. وإن كنت تريد ملكاً، ملّكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً

تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه... حتى إذا فرغ منه عتبة، ورسول الله ﷺ يسمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل. قال:

﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، حَم. تنزيلٌ مِنَ الرحمن الرحيم. كتابٌ فصِّلت آياتُه قرآناً عربياً لقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً. فأعرضَ أكثرُهم فهم لا يَسمعون**﴾ [فصلت: ١ ـ ٤] ثم مضى رسول الله ﷺ يقرأها عليه، فلما سمعها عتبة منه أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره، معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك (وفي رواية أخرى أن عتبة لما سمع من النبي ﷺ قوله تعالى ﴿**فإن أعرضوا فقل أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود**﴾ أمسك بفم النبي ﷺ وناشده الرحم أن يكفّ، وذلك خوفاً مما تضمنه من الوعيد).

ثم عاد عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد عاد أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً ما سمعتُ مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا هو بالسحر ولا هو بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا

الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكُه ملكُكم وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هـذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم(١).

وروى القرطبي في تفسيره، عند قوله تعالى: ﴿إنه فكر وقدر. فقُتِلَ كيفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨] قال (وكأنه يتم القصة التي ذكرتها آنفاً): لما نزل ﴿حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ إلى قوله ﴿إليه المصير﴾ سمعه الوليد يقرأها فقال: والله لقد سمعت منه كلاماً والله ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر. فقالت قريش: صبأ الوليد لتصبونّ قريش كلها ـ وكان يقال للوليد: ريحانة قريش ـ فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فمضى إليه حزيناً فقال له: ما لي أراك حزيناً؟ فقال له: وما لي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما. فغضب الوليد وتكبر وقال: أنا أحتاج إلى كسر محمد وصاحبه، وأنتم تعرفون قدر مالي؟ واللات والعزى ما بي حاجة

(١) انظر: عيون الأثر ج ١ ص ١٠٦ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٤.

إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا: لا والله. قال: وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه كذباً قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه تكهن قط؟ ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجاً فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله (كان النبي ﷺ يسمى الصادق الأمين لكثرة صدقه) فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه ثم نظر، ثم عبس فقال: فما هو إلا ساحر! أما رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه[1]!؟.

* * *

على أن الله تعالى أيّد نبيه بمؤيدات تؤكد نبوّته ولا تدع لمعتذر حجة، فقد أيده بالقرآن معجزة خالدة تعجز الطاقة البشرية بالغة ما بلغت أن تأتي بسورة من مثله، مما يدل على أنه ليس كلام محمد ﷺ ولا كلام غيره من البشر... إنما هو كلام الله سبحانه.

وأيده بمعجزات أخرى كانت بمثابة قطع السبيل عليهم وإثبات الحُجة عليهم، وهذه المعجزات كثيرة والكثير منها تواتر ذكره ومنها: معجزة انشقاق القمر.

قال ابن سيد الناس في كتابه (عيون الأثر): (وروينا عن طريق

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٩، ص ٧٣.

البخاري: ثنا مسعود، **ثنا يحيى**، عن شعبة وشعبان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن **أبي معمر**، عن ابن **مسعود** قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا.

وذكر القاضي عياض رحمه الله، قال رواه عنه مسروق أنه (ﷺ) كان بمكة. وزاد: فقال كفار قريش سحركم ابن أبي كبشة! فقال رجل منهم: إن محمداً إن كان سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا؟ فسألوا فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك. وحكى السمرقندي عن الضحاك نحوه وقال: فقال أبو جهل هذا سحر، فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى ينظروا هل رأوا ذلك أم لا؟ فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقاً فقالوا (يعني الكفار) هذا سحر مستمر، وروينا من طريق الترمذي: ثنا عبد بن حميد قال أنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**...﴾ إلى قوله ﴿**سحر مستمر**﴾[١].

ومن معجزاته ﷺ الإسراء والمعراج التي أثبتها كتاب الله وصحاح السنة...

---

(١) عيون الأثر ج ١ ص ١١٤.

لقد كانت جميع هذه المؤيدات تثبيتاً لإيمان الناس بنبيِّهم ﷺ وحجة على المنكرين استكباراً وجحوداً. وكان حرص النبي ﷺ على إيمان الناس جميعاً يجعله يحرص على الاستزادة من الخوارق المعجزة ليؤمن الناس ولكن الله تعالى قال لـه: ﴿**وأقسموا بـالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قل إنما الآيات عند الله. وما يشعرُك أنها إذا جاءت لا يؤمنون**﴾ [الأنعام: ١٠٩]. وقال سبحانه:

﴿**وإن كان كَبُر عليك إعراضُهم فإن استطعتَ أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين**﴾ [الأنعام: ٣٥].

إن المعجزة إنما هي إثبات مؤيد، والحق ظاهر بدلائله البيّنة من إعجاز القرآن وصدق النبي ﷺ، واستكثار المشركين من المعجزات إنما هو لتزجية الوقت والتهرب عن الالتزام بما ظهر من الحق.

* * *

أما الإيمان باليوم الآخر فقد كان من لازم الإيمان بالله تعالى والإيمان برسوله، وقد استهجن المشركون البعث بعد الموت وعجبوا منه واستبعد المشركون ـ وهم يعترفون بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض ـ أن يعيد الإنسان بعد الموت حياً ليحاسبه على عمله ويوفيه جزاءه، وكثر جدالهم حول **هذه**

المسألة. فقد روى ابن كثير في تفسيره أنه جاء أُبيّ بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفتّه ويذروه في الهواء وهو يقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟! قال ﷺ: «نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآية من آخر سورة يس: ﴿**أولَمْ يَرَ الإنسانُ أنّا خلقناهُ مِن نطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبينٌ، وضربَ لنا مثلاً ونسيَ خَلْقَه قالَ مَن يُحيي العظامَ وهي رميمٌ**﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٨].

أما المؤمنون فقد تفاعلوا مع هذه الحقيقة فإذا هي تستقر في أفئدتهم وتوجه سلوكهم وتملأ نفوسهم سكينة واطمئناناً وعزة وجرأة، فقد روى البخاري ومسلم عن مسروق عن خباب قال: كان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لي: لن أقضيك حتى تكفر بمحمد! قال: فقلت له: إني لن أكفر بمحمد حتى تموت فتبعث. قال: أو إني لمبعوث بعد الموت؟!... فسوف أقضيك إذا رجعتُ إلى مال وولد. قال وكيع كذا قال الأعمش قال: فنزلت هذه الآية: ﴿**أفرأيتَ الذي كفرَ بآياتِنا وقال لأُوتَيَنَّ مالاً وولداً...**﴾ إلى قوله ﴿**ويأتينا فرداً**﴾ [مريم: ٩٥].

وورد في كتاب حياة الصحابة أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه بعد أن رد على الوليد بن المغيرة جواره. حضر في مجلس من المجالس فسمع الشاعر لبيد بن ربيعة ينشد قائلاً:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ

فقال عثمان: صدقتَ. فقال لبيد:

وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

فقال عثمان: كذبتَ، نعيم أهل الجنّة لا يزول. فقال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسُكم، فمتى حدث فيكم هذا؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدنّ في نفسك من قوله، فرد عثمان عليه حتى سرى - أي عظم - أمرُهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضّرها (أي جعلها خضراء أي سوداء) والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان. فقال: أما والله يا ابن أخي، إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمّة منيعة. فقال عثمان: بلى والله! إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس![١].

وأخرج الحسن بن سفيان وأبو نعيم عن حنظلة الكاتب الأسيدي رضي الله عنه - وكان من كتّاب النبي ﷺ - فقال: كنا عند النبي ﷺ فذكَّرنا الجنّة حتى كأنَّا رأي عين، فقمت إلى أهلي وولدي فضحكت ولعبت فذكرت الذي كنّا فيه، فخرجت فلقيت أبا بكر رضي الله عنه فقلت: نافقتُ يا أبا بكر. قال: وما ذاك؟ قلت: نكون عند النبي ﷺ يذكِّرنا الجنة والنار كأنا رأي عين،

---

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٤٤٢.

فـإذا خرجنـا من عنده عـافسنـا الأزواج والأولاد والضيعـات، فنسينا. فقال أبو بكر: إنّا لنفعل ذلك! فأتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك فقال: «يا حنظلة لو كنتم عند أهلكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي الطريق. يا حنظلة سـاعة وساعة. . . [1]».

وأخـرج أحمد ومسلم عن عبـد الرحمن بن شـماسة قال: «لما حضرت عمرو بن العاص الوفاةُ بكى، فقال له ابنه عبدالله: لِمَ تبكي؟ أجزعاً على الموت؟ فقال: لا والله ولكن مما بعد الموت! فقال له: لقد كنتَ على خير، فجعل يذكِّره صحبته رسول الله ﷺ وفتوحه الشام. فقال عمرو: تركت أفضل من ذلك كله: شهادة أن لا إله إلّا الله ثم قال: فإذا متُّ فلا تبكين عليّ باكية ولا يتبعني مادح ولا نار، وشدوا عليّ إزاري فإني مخاصم وشنّوا عليّ التراب شنّاً، فإن جنبي الأيمن ليس بأحق بالتراب من جنبي الأيسر ولا تجعلن في قبري خشبة ولا حجراً» وزيد في بعض الروايات (عند ابن سعد ٤ : ٢٦٠)، ثم قال: اللهم أمرتنا فركبنا ونهيتنا فأضعنا فلا بريء فأعتذر ولا عزيز فأنتصر ولكن لا إله إلّا الله ـ ما زال يقولها حتى مات[2].

وقد بلغ من تفاعلهم مع عقيدة اليوم الآخر ما رواه أحمد وغيره

---

(١) حياة الصحابة ج ٣ ص ٤٧٣.
(٢) حياة الصحابة ج ٣ ص ٤٨٢.

عن أنس رضي الله عنه أن عميراً بن الحمام رضي الله عنه قال حين حرَّض رسول الله ﷺ أصحابه على القتال يوم بدر: بخ بخ أفما بيني وبين الجنّة إلا أن يقتلني هؤلاء؟! قال فقذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل[1].

وهكذا آتت هذه التربية ثمارها وحلّت في الموضع الملائم من نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، حيث غدت الدافع والوازع والشعور المرهف في نفوسهم والعاطفة الصادقة بالشوق والإشفاق في أفئدتهم، والفهم الواضح والقناعة القوية والرؤية الثاقبة لهذه الحقائق بأسس سليمة وطريق سديدة. فقد طالبهم الإسلام أن يكون اتباعهم للحق عن علم لا عن اتباع أعمى وذلك أنهم قد وُهبوا وسائل الوصول إليه: قال تعالى: ﴿**ولا تقفُ ما ليس لك به علمٌ إن السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئكَ كان عنه مسؤولاً**﴾ [الإسراء: ٣٦].

(١) حياة الصحابة ج ٣ ص ٤٨٣.

بالعبودية والتبتل واتصال القلب بالله بالخوف والرجاء والحب.

قال تعالى: ﴿وعباد الرحمنِ الذين يَمْشُون على الأرضِ هَوْناً، وإذا خاطَبَهمُ الجاهلونَ قالوا سلاماً. والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً. والذين يقولون ربنا اصرِفْ عنا عذابَ جهنَّمَ إن عذابَها كانَ غراماً. إنها ساءت مستقراً ومقاماً...﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٦٦].

أخرج مسلم عن سعد بن هشام أنه سأل السيدة عائشة رضي الله عنها فقال: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ فقالت: ألست تقرأ: ﴿يا أيها المزمل﴾؟ قلت: بلى. قالت: «فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام النبي ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف. فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة». أخرجه مسلم(٧٤٦).

تشير السيدة عائشة رضي الله عنها إلى قوله تعالى ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفَه أو انقص منه قليلاً أو زِدْ عليه ورتِّلِ القرآنَ ترتيلاً﴾ في أول سورة المزمل، وإلى قوله تعالى ﴿إن ربَّك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدِّر الليلَ والنهارَ، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم،

فاقرؤوا ما تيّسر من القرآن، علم أن سيكون منكم مرضى وآخرين يضربون في الأرض، يبتغون من فضلِ الله...﴾ الآية عندما أشارت إلى التخفيف في آخر المزمل.

* * *

الإنسان ليس عقلاً فحسب، ولكن العقل خاصة من خصائصه، وإلى جانب العقل جسم متعطش إلى رغبات وشهوات جامحة، وكتلة من العواطف والانفعالات...، ولذلك فالقناعة العقلية وحدها غير كافية لتوجيه سلوك الإنسان وفق أحكامها وما وصلت إليه من نتائج، ولو كانت كافية للزم من ذلك أن يغدو كثير من علماء الطبيعة والفضاء والبيولوجيا، والباحثون في أسرار الكون الفسيح أو خفايا جسم الإنسان... أولياء لله من اتقى عباده له وأشدهم التزاماً بدينه...!

ذلك لأن كثيراً منهم قد أقروا مذعنين بوجود الخالق سبحانه وتعالى إقراراً لا يتسرب إليه الشك ولا يبلغه التردد[1]، ولكنهم مع ذلك ـ في كثير من الأحيان ـ لم يندفعوا بهذا الإقرار والإيمان إلى طاعة الله وتجنب معصيته، إنما اكتفوا من إيمانهم بالله أنهم اعتبروه انتصاراً علمياً تتناقله الصحف ووكالات الأنباء...

---

(١) راجع على سبيل المثال كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) الذي كتب مواضيعه ثلاثون عالماً من مشاهير العلماء في العالَم، وأشرف على تحريره جون كلوفر مونسما.

ولقد سبق هؤلاءِ العلماءَ المشركون فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿ولئن سألتَهم من خلقَ السمواتِ والأرضَ ليقولنّ: الله﴾ - ولكن ماذا بعد هذا الإقرار؟ وماذا يعني هذا الإقرار بالنسبة لحياتهم وسلوكهم؟ . . . لا شيء . . .

لقد اعتذر كثير منهم بأن الانقياد لمنهج الله ودينه يتطلب كثيراً من التضحيات التي يجبنون عنها أو يضعفون . . فهو يتطلب التضحية بهذا الإغراق في تلبية نداء شهوة الجنس وما إليها . . . وهم أضعف من أن يضحّوا بذلك. وهو يتطلب التزام منهج دقيق في حياتهم وطعامهم وشرابهم وعلاقاتهم، يلزمهم بواجبات كثيرة ويحرمهم من كثير مما اعتادوا عليه . . وهم أضعف من تحمل هذا الالتزام . . .

وهو يتطلب منهم تحمل ما قد يترتب على التزامهم بهذا الدين من قطيعة المجتمع ونبذه لهم، وإيذاء الناس واستهزائهم بهم، ونحو ذلك . . وهم أجبن من تحمل ذلك . . .

وباختصار، إن رغباتهم ليست بمنساقة لأحكام العقل التي آمنوا بها.

والحقيقة أن لهم شبهة عذر في ذلك . . إلى حد ما . . ولكنهم غير معذورين لأنهم اكتفوا من الزاد لبلوغ الحق بالعقل وحده، والعقل ليس كل شيء في حياة الإنسان، بل يجب أن يؤيد العقل

بما يثير في القلب الحب والخوف والرجاء لله تعالى الذي آمن العقل به. لينشأ بذلك قلب حي يتفاعل مع العقل في أحكامه، فتتفق نبضات القلب مع نشاطات الدماغ ويتآزران معاً على إيجاد الإرادة القوية والاندفاع الصادق نحو التزام منهج الله ودينه.

وما لم تتلاقح القناعة العقلية بانفعالات الحب والرجاء فإن هذه القناعة ستبقى حبيسة العقل، ولن تستطيع في أحسن الأحوال أن تتجاوز اللسان.

ولذلك، فقد اتجه المنهج الرباني في تربية الإنسان المسلم لتحقيق تربية تبلغ به التكامل في التكوين، فهو يؤيد العقل بالقلب والفكر بالعواطف، لتتكون بذلك الإرادة القوية التي تدفع بصاحبها نحو تحقيق الإسلام بجرأة وقوة...

إنه يغذي عواطف المؤمن بشحنات من الحب لله تعالى والخوف منه والرجاء إليه، ويرسخ في تصوره أحوال اليوم الآخر بمسراته وأهواله، ليكون في ذلك تغذية أخرى تؤيد اندفاعه.

إن منهج الله تعالى في إعداد الفرد المسلم يتجه بعد أن يغرس في عقله الإيمان بالله تعالى والإقرار بوجوده ليثير في قلبه مشاعر الحب له سبحانه وتعالى بعد أن يذكِّره بنعم الله تعالى عليه ورحمته به ودوام إحسانه إليه. ويوقظ في قلبه في الوقت ذاته مشاعر الخوف من الله سبحانه وتعالى خوف تعظيم وحب وإجلال، وخوف وقوع

في مخالفة أمره، وخوف حذر من عقوبته، خوف منه وحده ليس كالخوف من غيره لأنه سبحانه وتعالى هو وحده الضار والنافع الذي بيده الأمر كله،مع إدراك للمسؤولية الكبيرة والعبء العظيم الذي كلفه الله سبحانه وتعالى بها إذ متعه بمؤهلات ومقومات تلك المسؤولية والأعباء. . .

ولذلك فقد اتجهت الآيات القرآنية والتربية النبوية نحو تغذية القلب بمعاني الحب والتفاني في الله المنعم بكل شيء، وتوقظ في القلب معاني الخشية من الله تعالى العليم بكل شيء الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتثير في القلب معاني الإجلال لعظمة الله تعالى وعزته. . .

ولكن اتصال القلب بالله لا يتم على النحو الأكمل إلاّ من خلال مثول العبد بين يدي خالقه العظيم جلّ جلاله في ركوع وسجود وقيام. . . وعندئذٍ يفتح هذا القلب لفيض حب الله تعالى، ويشعر الإنسان عندئذٍ وهو يمثل بين يدي الله سبحانه بضآلته وضعفه وافتقاره وتسري في قلبه مشاعر الإجلال والخوف من الله سبحانه وتعالى. . . وإنه لخوف ممتزج بالحب. . .

وعند وقوف العبد بين يدي خالقه يتلو آياته ويسجد ويركع خاشعاً له واجفاً خائفاً يشعر بالافتقار إلى ربه فيبسط إلى ربه كف الرجاء رغبة في فضله ورهبة من عقابه.

كل ذلك من خلال ركعات يعبِّر فيها المؤمن عن تذلله وتضاؤله بين يدي ربه وافتقاره إليه وخوفه منه وحبه له... حتى إذا انتهى من صلاته عاد بقلب يقظ حي مشحون بانفعالات متأججة تدفعه إلى الاستزادة من العبودية لربه والتزام أمره واجتناب نهيه بحب متفان وتعظيم ورجاء... وعندئذٍ تنهمر سحائب الرحمة من الله على هذا المؤمن و﴿**إن رحمة الله قريب من المحسنين**﴾ [الأعراف: ٥٦] الذين يراقبون الله كأنهم يرونه، فتزيدهم مراقبته صفاءً وصدقاً وحباً وخشيةً وتمنحهم لذة الوصال التي تدفع إلى الاستزادة...!

في ظل هذه المعاني... ومن كأس الحب لله ارتشف الرعيل الأول فسكن ذلك الحب أعماق أفئدتهم وغدت نبضات قلوبهم تنطق بحب ورجاء وخوف... متجه نحو بارىء الكون سبحانه وتعالى، وقد قال تعالى في الحديث القدسي: «**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه... فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينّه ولئن استعاذني لأعيذنّه**» أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)

لقد غدا الفرد من أصحاب رسول الله ﷺ بهذه التربية ملتزماً بالنهج الذي يرضي الله في كل أحواله وبكل جوارحه، فلا يسمع

إلا طيباً، ولا يتكلم إلا طيباً، ولا يبصر إلا طيباً ولا تتحرك يده إلا لخير، ولا يمشي إلا لخير... ذلك لأن حب الله ملك فؤاده، وإنما تتحرك الجوارح بتوجيه من القلوب...

لقد كان إمامَهم وقدوتَهم في ذلك كله إمام المتقين وخاتم المرسلين ﷺ، فقد أخرج أبو داود وابن خزيمة عن عبدالله بن أبي قيس قال قالت عائشة رضي الله عنها: «لا تدع قيام الليل، فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه، وكان إذا مرض أو كسل صلّى قاعداً»[1] كذا في الترغيب (١: ٤٠١).

وأخرج الشيخان عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ قام حتى تفطّرت قدماه، فقيل له أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟!».

وأخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يصلّي إحدى عشرة ركعة (في الليل) يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه، ويركع الركعتين قبل صلاة الفجر ثم يضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المنادي للصلاة.

وإنما شأن المصلّي في صلاته أن يقف بين يدي ربه وقوفَ العبد

(١) حياة الصحابة ج ٣ ص ٦١٢.

بين يدي خالقه خاشعاً متضائلاً مفتقراً قائماً يتلو آياته وراكعاً وساجداً.

فإذا ما انفتل من صلاته عاد بروح جديدة وقلب مفعم بالحب والرجاء والخوف.. مفعم بالصلة بالله، وما أعظم الصلة بالله!

واكتسب بذلك لذة العبادة التي تدفع به إلى الاستزادة شوقاً وحباً..

ويعود إلى كتاب الله ليجد فيه الآيات التي تملأ عقله وقلبه وتحيي مشاعره بمعان لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبّر عنها، أو أن تصوغها... لأنها إعجاز إلهي وتربية ربانية...!

والخوف من الله ثمرة من ثمرات هذه التربية جعلت القلوب واجفة خاشعة لربها في الوقت الذي تتجاوز فيه الثريا اعتزازاً بعبوديتها لله...

الخوف من الله والرهبة من عذابه والخشوع لعظمته كان شأن النبي ﷺ وأصحابه، وقد تعهدتهم آيات الله في هذه الفترة لتربيتهم ببث مشاعر الخوف في قلوبهم لتكون دافعاً لهم إلى العبودية والطاعة ومانعاً لهم عن تجاوز الحق والخير، وقد حفظت السيرة المطهرة والآثار الصحيحة صوراً تبلغ بتأثيرها أعماق القلوب في آثار هذه التربية من نفوسهم.

أخرج ابن النجار عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

سمع قارئاً يقرأ: ﴿**إن لَدَيْنا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غُصَّةٍ وعذاباً أليماً**﴾ [المزمل: ١٢]. فصعق (أي أُغمي عليه) كذا في الكنز (٤: ٤٢)[1].

وأخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما (وصححه) أنه قال: لما أنزل الله عز وجل على نبيه هذه الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة...**﴾ [التحريم: ٦] تلاها رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فخرّ فتى مغشياً عليه فوضع رسول الله ﷺ يده على فؤاده فإذا هو يتحرك فقال رسول الله ﷺ: يا فتى قل لا إله إلّا الله، فقالها، فبشّره بالجنّة، فقال أصحابه: يا رسول الله، أمن بيننا؟ فقال: أو ما سمعتم قوله تعالى: ﴿**ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد**﴾ [إبراهيم: ١٤] الترغيب (٥: ١٩٤)[2]

وقد بلغ الخوف في أصحاب رسول الله ﷺ أن تمنى أحدهم لو كان كبشاً ذبحه أهله فأكلوه، وتمنى آخر لو كان رماداً عصفت به الريح.

أخرج أبو نعيم في الحلية عن عامر بن مسروق قال: قال رجل عند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما أحب أن أكون من

---

(١) حياة الصحابة ج ٣ ص ٢٥٣.
(٢) حياة الصحابة ج ٣ ص ٢٥٤.

أصحاب اليمين، أن أكون من المقرّبين أحبّ إليّ! فقال عبدالله: لكن ههنا رجل (يعني نفسه) ودّ لو أنه إذا مات لم يبعث [1].

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما أنزلت **﴿أفمن هــذا الحـديث تعجبــون وتضحكــون ولا تبكــون﴾** [النجم: ٥٩] بكى أصحـاب الصفة حتى جـرت دمـوعهم عـلى خدودهم، فلما سمع رسول الله ﷺ حسهم بكى معهم، فبكينا لبكائه، فقال رسول الله ﷺ «لا يلج النـار من بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنّة مصرّ على معصية، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيغفر لهم» [2].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ **﴿إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع﴾** [الطور: ٨] فربا منها ربوة (أي رفع صوته باكياً) عِيدَ منها عشرين يوماً [3].

هذا الخوف كان رصيد الإسلام في الفرد الذي يعدّ ليكون نواة المجتمع الإسلامي، وقد اقترن الخوف في تربيتهم مع الرجاء حتى ارتبطت قلوبهم بالله تعالى وتوجهت إليه بالأمل والدعاء، والآية التي كانت تذكر ما يثير الخوف كانت تقترن بآية تثـير في القلب الرجاء فقد قال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: ألم ترَ أن الله ذكر آية

(١) حياة الصحابة ج ٣ ص ٢٥٦.
(٢) حياة الصحابة ج ٣ ص ٢٥٩.
(٣) حياة الصحابة ج ٣ ص ٢٦٠.

الرخاء عند آية الشدة وآية الشدة عند آية الرخاء ليكون المؤمن راغباً راهباً، لا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده إلى التهلكة (الكنز ٢ : ١٤٤)[١].

إن الهيكل التربوي الذي احتوى نفوس الرعيل الأول وقلوبهم، فأيقظ مشاعرهم واستولى على عواطفهم هو الأساس الذي تقوم عليه المقومات السلوكية للشخصية الإسلامية، والأساس الذي تقوم عليه روح الاستجابة عند المسلم.

انظر إلى ذلك العرض المؤثر في سورة ﴿ق﴾ الذي يؤكد من خلال أدلة مختلفة رجوعَ الناس إلى ربهم بعد الموت ويضع نصب أعينهم الحساب والجزاء، ومسؤوليتهم عن كل ما يقومون به من أمور ﴿**ما يلفظُ مِن قولٍ إلّا لَدَيه رقيبٌ عتيدٌ**﴾ ثم يذكرهم بالمصير الذي لا يملك الناس له دفعاً، مهما بلغوا من العلم والقوة أمام صورة ناطقة بالهول ﴿**وجاءت كلُّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيدٌ. لقد كنتَ في غفلةٍ من هذا فكَشَفْنا عنك غِطَاءَكَ فَبصَرُكَ اليومَ حديدٌ**﴾ ولن يفيده عندئذٍ إلقاء التبعة على من أضله وإن كانوا سيختصمون كثيراً أمام الله ﴿**قالَ قرينُه: ربَّنا ما أطغَيْتُه ولكن كان في ضلالٍ بعيدٍ. قالَ لا تختصِموا لَدَيَّ وقد قدمتُ إليكم بالوَعيدِ**﴾ ثم يعرض المصير الذي سيؤول إليه الكفرة والمنحرفون، وهي النار التي تثير في القلوب الهول والرعب، ويعرض مصير المتقين وهي

(١) حياة الصحابة ج ٣ ص ٢٥٥.

الجنّة التي أعدت لهم خير إعداد يسرهم ويسعدهم.

بعد هذا العرض يقول سبحانه وتعالى: ﴿**إن في ذلكَ لَذِكرى لِمَن كانَ له قلبٌ أو ألقى السمَعَ وهوَ شهيدٌ**﴾ [ق: ١٨-٣٧] والتربية الربّانية هي الأساس الذي يوقظ للإنسان قلبه، ويمنحه السمع للحق والاتعاظ به. وتكون بالتالي الوازع الذي يمنع المرء من المعصية، ويدفعه إلى تطبيق تلك المقومات المسلكية للشخصية الإسلامية، والقيام بها وهو يشعر بالمسؤولية العظمى أمام الخالق نحوها.

جـ ـ الابتلاء والمحنة

من مقومات الإعداد. . ومن دلائل الصدق.

قال تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. الٓمٓ. أَحَسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون، ولقد فتنا الذين مِن قبلِهم، فَلَيعلمَنَّ الله الذين صدقوا وليعلمَنَّ الكاذبين﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وقال سبحانه ﴿لَتُبْلَوُنّ في أموالِكم وأنفسِكم ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذينَ أُوتوا الكتابَ مِن قبلِكم ومِنَ الذين أشركوا أذىً كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ [آل عمران: ١٨٦].

أخرج البخاري عن خبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه أنه قال: أتيتُ النبي ﷺ وهو متوسِّد ببردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو لنا؟ (وفي رواية أنه كشف عن ظهره وأراه آثار الكيّ. . .) فقعد النبي ﷺ وهو محمرّ الوجه فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمَّنَّ الله هذا الأمرَ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عز وجل (زاد في رواية: والذئب على غنمه) ولكنكم تستعجلون».

* * *

المتقدمون إلى حمل عبء هذا الدين، والمتصدرون لمسؤولية إقامة شريعة الله في الأرض، ليقيموا المجتمع الإسلامي الذي لا يدين بالعبودية إلا لخالقه، يجب أن يكونوا أقوياء! لأن هذا العبء ثقيل لا يحمله إلا قوي.

ولذلك كان لا بد أن يتعرض كلُّ مدّعٍ تحمُّلَ مسؤولية إقامة دين الله للاختبار والابتلاء، لأن الطريق إلى إقامة دين الله في الأرض صعبة مليئة بالمشاق ومحفوفة بالمخاطر، ولا بد لكل من يسلكها أن يتجاوز شدائدها وصعابها... وإلّا سقط...! وإذا سقط أثبت فشله وضعفه، ولن يقوم المجتمع الإسلامي على كواهل ضعيفة ونفوس مريضة وعقول مضطربة وقلوب مترددة.

ورأس مال الإنسان في هذا الطريق هو عقيدته وتربيته، وزاده إنما هو العون الإلهي الذي لا ينال إلا الصادقين...!

وفي الظلال في مطلع تفسير سورة العنكبوت:

«إن الإيمان أمانة الله في الأرض، لا يحملها إلا من هم لها أهل، وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص، إلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى المتاع والإغراء. وإنها لأمانة الخلافة في الأرض وقيادة الناس إلى طريق الله وتحقيق كلمته في عالم الحياة، فهي أمانة كريمة، وهي

أمانة ثقيلة وهي أمر الله يضطلع بها الناس، ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص، يصبر على الابتلاء».

ولذلك فقد كانت المحنة والشدة من الصفات التي تميزت بها حياة المسلم منذ اللحظة الأولى، بل كانت الشدائد والمحن تربية تلقّاها الرعيل الأول ليغدو قادراً على تحمّل مسؤولية إقامة (المجتمع الإسلامي).

إن مجرد إعلان الإسلام يعتبر في حدّ ذاته تحدياً صارخاً يزعج الحاقدين على الإسلام والمتعصبين ضده، كما يزعج المستفيدين من الضياع والضلال الذي يعانيه الناس عندما يفتقدون هداية الله في حياتهم، ويستثيرهم ويدفع بهم إلى مجابهة (المسلم) لثنيه عن إسلامه ودينه، لأن إسلامه يعني العبودية لله وحده. وفي هذا تفويت لمصالح أساسية لهم وعند المجابهة تبدأ المحنة والشدائد، يبدأ الاضطهاد والتعذيب... ولن يقوى على الثبات في وجه الاضطهاد والتعذيب إلا قوي الإيمان متين العقيدة صحيح التربية سليم التكوين.

والابتلاء من ناحية ثانية إعداد وتأهيل للمؤمنين يشدّ من أزرهم ويزيد من اندفاعهم ويصفيهم من شوائبهم حتى يغدوا قادرين على القيام بواجبهم لانشاء المجتمع الإسلامي الذي يجاهدون ويعملون لإقامته تقرباً إلى الله وسعياً من أجل تطبيق شريعته.

إن التراب المتفكك لا يصلح أساساً لبناء، ولا بد من إعداد قواعد صلبة متينة قد زادتها الضربات والشدائد صلابة ومتانة حتى تغدو أساساً متيناً يمكن أن يقوم على كواهله بنيان المجتمع الإسلامي.

ولذلك فقد كان من مقومات التأهيل والإعداد للمسلمين في مكة أن يصطلوا بنار الابتلاء والمحنة، وينالوا قسطاً وافراً من العنت والشدة، ولقد تفهم هذا الجيل العظيم معنى الابتلاء وتلقوا ألوانه بالرضى والصبر والوعي، ورأوا في الشدائد تربيةً واختباراً، فاغتبطوا للتربية وخاضوا غمار الاختبار بجرأة وقوة.

ولئن كان من طبيعة الإنسان أن يتعجل القطاف قبل أوانه، أو أن ينسى طبيعة الدرب التي يسلكها بسبب ضعف تركيبه، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يجدون فيه عليه الصلاة والسلام خير مؤدِّب ومربٍّ يذكرهم بما نسوه، ويمسح بكفه الحانية على جراحهم لتغدو وكأنها لم تكن ثم يعودون ليستأنفوا السير من جديد...

هذا ما جرى عندما جاء خباب بن الأرتّ رضي الله عنه إلى النبي ﷺ - فيما يرويه عنه البخاري - إذ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو متوسِّد ببردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمرّ الوجه فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه. وليتمنَّ الله هذا الأمر، حتى

يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله (زاد بيان: والذئب على غنمه) ولكنكم تستعجلون، رواه البخاري وأبو داوود والنسائي والحاكم[1].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما قال: مرّ رسول الله ﷺ بياسر وعمار وأم عمار، وهم يؤذَون في الله تعالى فقال لهم عليه الصلاة والسلام «صبراً آل ياسر! صبراً آل ياسر! فإن موعدكم الجنة».

وإن مشاهد المحن والابتلاء التي تعرّض لها أصحاب رسول الله ﷺ في مكة، لتنطق بقوة الإعداد والتأهيل وتنطق أيضاً بعظمة هذا الجيل ومتانة إيمانه وثباته، وتنطق بالأثر المعنوي العجيب الذي نالته التربية الربانية والعقيدة الصحيحة من نفوسهم.

ومن هذه المشاهد ما أخرج الحافظ الطرابلسي عن عائشة رضي الله عنها قالت:

لما اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ ـ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ـ ألح أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في الظهور: فقال «يا أبا بكر، إنا قليل» فلم يزل أبو بكر يلحّ، حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس،

---

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٤٣٣.

فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضُربوا ضرباً شديداً ووُطىء أبو بكر وضُرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تيم يتعادَون فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكّون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: «والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة».

فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسّوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه ـ أم الخير ـ: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه. فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبدالله. فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً. فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم. قال: فما فعل رسول

الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها. قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم.

قال: فإن لله علي أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ. فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس خرجتا به يتكيء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ. قال: فأكبّ عليه رسول الله ﷺ، فقبّله، وأكبّ عليه المسلمون. ورقّ له النبي ﷺ رقة شديدة! فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله! ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي. وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك، فادعها إلى الله وادع الله لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النار. قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت. وأقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهراً وهم تسعة وثلاثون، وقد كان حمزة رضي الله عنه أسلم يوم ضُرب أبو بكر رضي الله عنه(١).

ومن مشاهد المحنة التي نالت المسلمين في مكة، ما أخرجه أبو نعيم في (الحلية ج ١ ص ١٢٨) عن ابن إسحاق: كان أمية يخرج بلالاً إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. فيقول - وهو في ذلك البلاء -: أحد أحد...

ثم إن أبا بكر رضي الله عنه أنقذ بلالاً مما هو فيه عندما اشتراه

من أمية وأعتقه لوجه الله.

وقد أعتق أبو بكر رضي الله عنه من العبيد الذين أسلموا فنالهم الأذى لإسلامهم ستةً غير بلال[1].

ولعل من أشد الناس تعرُّضاً للعذاب والابتلاء في هذه الفترة آل ياسر رضي الله عنهم، فقد تعرضت الأسرة للعذاب الوحشي، إذ كان بنو مخزوم (قبيلة أبي جهل) يخرجونهم جميعاً إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة. وصبر آل ياسر وثبتوا حتى استُشهد ياسر رضي الله عنه تحت التعذيب ولحقت به زوجه سمية رضي الله عنها بطعنة شنيعة من أبي جهل لعنه الله، ورُمي عبدالله ابن ياسر فسقط أيضاً، وبقي عمار الذي كاد يلحق بهم لولا نطقه بما يُكرهونه عليه وقلبه مطمئن بالإيمان[2].

ولم يكن رسول الله ﷺ في مأمن من هذه الشدائد والمحن....

فقد أخرج البخاري عن عروة رضي الله عنه قال: سألت ابن العاص رضي الله عنه، فقلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ. قال:

(١) انظر خبر إعتاق أبي بكر الأرقاء المسلمين في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٨.

(٢) انظر حياة الصحابة ج ١ ص ٤٣٠ والإصابة ج ٣ ص ٦١١ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٩.

بينما النبي ﷺ يصلي في حِجر الكعبة، إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ، وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟!».

وزاد عند ابن أبي شيبة عن عمرو بن العاص قال: ثم انصرفوا عن النبي ﷺ، فقام رسول الله ﷺ فصلى، فلما قضى صلاته مرّ بهم وهم جلوس في ظل الكعبة فقال: «يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده! ما أرسلت إليكم إلا بالذبح - وأشار بيده إلى حلقه» فقال له أبو جهل: ما كنت جَهولاً. فقال له رسول الله ﷺ: «أنت منهم». كذا في كنز العمال ج ٢ ص ٣٢٧[١]

ولم تقتصر المحنة والشدائد على لون واحد بل لقد تفنن المشركون في أساليب فتنة المسلمين عن دينهم... فتارة بالضرب الشديد الذي قد يصل بالمرء إلى الموت أو قريباً منه، وتارة بالاستهزاء والسخرية والاحتقار، وتارة بالتأنيب والتقريع والضغط الشديد... ولقد فتن المسلمون بالمقاطعة التي نال من شدائدها معهم بنو هاشم وبنو المطلب تضامناً مع رسول الله ﷺ ولأنهم رفضوا أن يتخلَّوا عن حماية رسول الله ﷺ فقد كتبت قريش

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٣٩٢.

صحيفة (معاهدة) هذه المقاطعة وعلقوها في جوف الكعبة تأكيداً على التزامها وقد تضمنت هذه الوثيقة: «باسمك اللهم. على بني هاشم وبني عبد المطلب. على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ولا يعاملوهم؛ حتى يدفعوا إليهم محمداً فيقتلوه».

وقد عانى المسلمون ومعهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب من شدائد هذه المقاطعة سنتين وبضعة أشهر حتى نقضها بعضهم وفقدت جدواها بينهم...(1)

كل ذلك قد نال المسلمين... ﴿**وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد**﴾. [البروج: ٨]

وكان مما يخفف عن المسلمين ألم الشدائد والمحن ذلك اليقين الذي تمكن من قلوبهم، بأن الدنيا ليست بالمستقر الذي يُركن إلى ظله ويُطمأن إلى نعيمه أو يُخشى من فتنه... إنما هي دار ابتلاء، لا أهمية لسطوة أهلها ولا قيمة لعزهم، إذ كثيراً ما تكون الأمور فيها معكوسة رأساً على عقب، فقد يحتقر فيها الشريف ويشرف فيها السفيه. ومما جعل الطمأنينة تسري في قلوبهم علمهم بأن الله

---

(١) انظر خبر المقاطعة وتحليلها في دراسات في السيرة النبوية للدكتور عماد الدين خليل. وهي في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٠ وص ٣٧٤ وعيون الأثر ج ١ ص ١٢٧.

تعالى يحصي على المجرمين أعمالهم، ولن يفلتوا من قبضة عذابه وعقابه وما الله بغافل عما يعملون. وقد قال تعالى: ﴿**ولا تحسبنَ الله غافلاً عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخَص فيه الأبصار. مُهطِعين مُقنِعي رؤوسِهم، لا يرتدُّ إليهم طَرْفُهم وأفئدتُهم هواءٌ**﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٣].

وكانوا على يقين بأن الله لا يضيع أجر المحسنين وأنه ﴿**إنما يُوَفَّى الصابرون أجْرَهم بغيرِ حسابٍ**﴾ [الزمر: ١٠].

لقد هانت أمام أعينهم كل صنوف المحنة عندما علموا أن طريقهم أوله صبر وابتلاء وآخره نصر وجزاء. وكانت الآيات تلمس قلوبهم اللمس الرقيق فتسري فيها روح متوثبة قوية لا تنهار أمام الشدائد بل تستطيبها.

وهكذا نشأ تحت مطارق المحنة جيل لا ينهار أمام المغريات ولا يتهيّب الشدائد ولا يخشى العقبات... جيل جادّ لا يعرف الهزل، دؤوب لا يعرف التقاعس، جريء لا يعرف الخوف... جيل متلهف لمعرفة واجباته مندفع للقيام بمسؤولياته حريص على تطبيق أمر الله لبلوغ مرضاته... جيل يترقب الوحي النازل من السماء ليصحح خطاه وسيره على الأرض...!

وبذلك آتت هذه التربة ثمارها وأعطت إنتاجها الطيب وذلك

ضمن أسلوب تربوي رباني دقيق. . . هو المنهج العملي المتكامل، الذي كانت الدعوة تنمو في ظله باستمرار ضمن الظروف الملائمة والتي تتطور أساليبها ومراحلها ومواقفها ضمن إطاره.

وهذا المنهج العملي. . . هو موضوع بحثنا في الفصل التالي:

٣ ـ المنهج العملي للدعوة الذي تتطور في ظله أساليبها ومراحلها

تمهيد:

لعل أكثر المسلمين اليوم يغيب عن أذهانهم أن المنهج العملي الذي التزمته الدعوة في حياة النبي ﷺ، هو أحد المقومات الرئيسية في إعداد الرعيل الأول لإقامة المجتمع الإسلامي، وهو منهج ضروري لا غنى عنه لحركة الدعوة الإسلامية في أي عصر من العصور إذا كانت تهدف لإعداد مماثل، ولكنه في الوقت نفسه جزء لا ينفصل عن المقومات الأخرى التي عرضناها في الفصل السابق... وهو بدونها ليس بشيء، لأنه وعاء فارغ، وهي بدونه أعجز من أن تؤتي ثمارها، بل سيضيع الجهد ويذهب أدراج الرياح إن لم يحتوِها.

ويتمثل هذا المنهج في التدرج المرحلي الذي اتبعته الدعوة في سيرها ووسائلها، إذ كانت تلتزم عدم تجاوز مرحلة إلى أخرى إلا

إذا استكملت مقومات هذا التجاوز بأن بلغت من القدرة والنضج ما يمكنها منه.

والمعيار الذي تقيس به الدعوة الإسلامية ظروفها وإمكاناتها ليس كثرة العدد...! ولا كثرة المصفقين للدعوة أو المزدحمين في مساجدها ومنتدياتها... ولا تلك المظاهر القائمة هنا وهناك من زينة فاخرة ومآذن شاهقة وأصوات ندية... وصحف ومجلات ذائعة وخطب رنانة ومؤتمرات دولية..!

إنما هو مدى ما بلغته الدعوة ومبادئها وتربيتها من التأثير على عقيدة أبنائها و سلوكهم ونفوسهم... إنه مدى صدق التزام أبناء الدعوة بها وإخلاصهم لها وتفانيهم في سبيلها...

تتجلى ملامح هذا المنهج في حياة النبي ﷺ ودعوته من خلال الأمور التالية:

- التدرج المرحلي في سير الدعوة.
- الوعي الدقيق الذي يهدف إلى سلامة الدعوة وتحقيق أهدافها.
- النظام الدقيق في أسلوب العمل.

ولعل أبرز هذه الملامح وأقواها ظهوراً هو ذلك التدرج المرحلي في سير الدعوة الذي ابتدأ يوم نزل الوحي على النبي ﷺ واستمر يتجاوز مرحلة ليصل إلى أخرى تتلاءم مع ظروف الدعوة

وإمكاناتها إلى أن تمّ قيام المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة. . . وفي الصفحات التالية سأحاول أن أتلمس مظاهر هذا التدرج بشيء من التفهم والدراسة.

التدرج المرحلي:

طبيعة الدعوة الإسلامية وأسلوبها في السير. . .

لا يصعب على أي متأمل في صفحات السيرة النبوية أن يدرك سير الدعوة الإسلامية على مراحل تنسجم مع إمكاناتها والظروف المحيطة بها بالنسبة لطبيعة الدعوة، وتنسجم مع درجات المسؤولية التي يجب على الداعية أن يتحملها بالنسبة لشخص الداعية.

وسأتناول بالبحث ما يتعلق بطبيعة الدعوة مطلقاً. . . ويمكن أن نلمس من خلال ذلك ـ عرضاً ـ ما يتعلق بمسؤوليات شخص الداعي. . .

بدأ رسول الله ﷺ دعوته فور بعثته سراً. . . مقتصراً بها على بعض أهله وأصدقائه ممن يثق باستجابتهم. . . على تكتم.

فقد نقل الكاندهلوي في «حياة الصحابة» عن ابن إسحاق أن علياً رضي الله عنه جاء فرأى النبي ﷺ وزوجه خديجة يصليان. فقال علي: يا محمد، ما هذا؟ قال: «دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله. . . فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى

عبادته وأن تكفر باللات والعزى. . . » فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، ولست بقاضٍ أمراً حتى أحدث به أبا طالب. فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: يا علي، إذا لم تسلم فاكتم. فمكث علي تلك الليلة، ثم إن الله أوقع في قلب علي الإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال: ماذا عرضت علي يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد». ففعل علي وأسلم. ومكث يأتيه على خوف من أبي طالب، وكتم علي إسلامه ولم يظهره[1].

وروى ابن هشام عن ابن إسحاق أن أبا طالب لقي ابنه علياً يصلي مع النبي ﷺ في شعاب مكة، فأقرّه على إسلامه.

وكما أسلم عليّ سراً أسلمت من قبله خديجة رضي الله عنها سراً، وأسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ سراً، وأسلم أبو بكر رضي الله عنه سراً. . . وما لبث أبو بكر رضي الله عنه أن انطلق يدعو بهدوء وحذر ويأتي بالشباب الطيب المتزن إلى النبي ﷺ يسلمون الواحد تلو الآخر. . . هكذا سراً. . . فقد أسلم بدعوة أبي بكر رضي الله عنه عثمان بن عفان وعثمان بن مظعون

---

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٨٧.

وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله وأبو عبيدة بن الجراح...[1].

وقد ذكرنا في مبحث (الابتلاء والمحنة) أن أبا بكر رضي الله عنه ألح على النبي ﷺ في الظهور عندما بلغ عدد المسلمين ثمانية وثلاثين رجلاً. وذلك بعد أن أمضت الدعوة أكثر من ثلاث سنوات في سرية وكتمان[2]...

وروى القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿فاصْدَعْ بما تُؤْمَرْ وأَعْرِضْ عَنِ المشركينَ﴾ [الحجر: ٩٤] عن عبدالله بن عبيد، أنه قال: (ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزل قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تُؤْمَر وأعْرِضْ عن المشركين﴾).

وإنما بدأت الدعوة بداية تخفٍّ وكتمان حذراً من وقع المفاجأة على قريش، وما يمكن أن يكون ردود الفعل إزاءها، إذ كانت الوثنية متأصلة فيهم عميقة الجذور في نفوسهم، ولأن زعماء قريش سيجدون في نبوة محمد ﷺ خطراً على زعامتهم ومكانتهم، وهذا سيدفعهم طبعاً إلى مقاومة دعوته بشراسة وعنف.

ولذلك... وحرصاً على درء ما قد ينال المقبلين على الإسلام

---

(١) انظر تفصيل من أسلم على يد أبي بكر رضي الله عنه في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٠.

(٢) انظر ص ٧٨ من هذا الكتاب.

إذا شعر المشركون بهم من الخطر والأذى وهم لا يزالون في إيمان غضّ وتكوين ضعيف فيفتنون خوفاً. . . أو طمعاً. . . !

ويحسن هنا أن أنقل بعض ما ذكره فضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «فقه السيرة» في تحليل وجه السرية أثناء بدء الدعوة إذ يقول: (. . . ولا ريب أن تكتم النبي ﷺ في دعوته إلى الإسلام، خلال هذه السنوات الأولى، لم يكن بسبب الخوف على نفسه، فهو حينما كُلِّف بالدعوة ونزل عليه قوله تعالى ﴿**يا أيها المدثر، قم فأنذر**﴾ علم أنه رسول الله إلى الناس، وهو لذلك كان يوقن بأن الإله الذي ابتعثه وكلفه بهذه الدعوة قادر على أن يحميه ويعصمه من الناس. على أن الله عز وجل لو أمره من أول يوم أن يصدع بالدعوة بين الناس علناً؛ لما توانى عن ذلك ساعة، ولو كان يتراءى له في ذلك مصرعه!

ولكن الله عز وجلّ ألهمه ـ والإلهام للرسول نوع من الوحي ـ أن يبدأ الدعوة، في فترتها الأولى بسرية وتكتم، وأن لا يلقى بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيصيخ لها، ويؤمن بها، تعليماً للدعاة من بعده، وإرشاداً لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها. على أن لا يتغلب ذلك على الاعتماد والاتكال على الله وحده، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى

التأثير والفعالية، في تصوره وتفكيره، فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام)[1].

وهكذا نجد أن السرية والكتمان إنما كانا مظهرين من مظاهر التدرج المرحلي وسبباً مادياً لحماية الدعوة والمحافظة عليها؛ في وقت لم تكن تملك فيه من الأسباب المادية التي أقام الله الحياة عليها ما يكفيها، ولم تكن لها قاعدة بشرية تقوم على حراستها ونشرها.

ومن جهة أخرى، فقد كان أسلوب السرية والكتمان غطاء تخفي الدعوة تحته عملاً دؤوباً وتربية مستمرة، لم يكن ممكناً ـ حسب الظاهر ـ أن تقوم بذلك كله لو أنها كانت تعمل جهراً، وخاصة لأن عناصرها كانوا قلة ضعيفة إذ ذاك.

ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن كل مقتضيات المرحلية والتدرج من سرية وغيرها إنما هي أسباب ظاهرة لا تملك في ذاتها ضرراً ولا نفعاً إلا بإذن الله، ولكن الله تعالى الذي تعبدنا بإقامة شرعه تعبدنا أيضاً باتخاذ الأسباب التي جعلها بإذنه طريقاً إلى إقامة شريعته، وإنما النصر والنجاح في كل أعمالنا هو بفضل الله وعونه، أرأيت إلى الفلاح الذي يحرث ويبذر ويسقي... لو لم ينبت الله له زرعه أو لم ينزل له الغيث من السماء ما كان ينفعه سعيه؟ غير أن

---

(١) فقه السيرة ص ٩٣.

سعيه هذا قد جعله الله تعالى سبباً للنبات بإذنه وبـدونه لم تجـر عادة الله أن ينبت الزرع. . . !

وبعد فليس بعيداً عن الصواب أن يقال إنه قد تسربت أنباء هذه الدعوة وبعض مبادئها إلى مشركي قريش وطغـاتها، ولكن ذلك لم يكن موجباً للمجابهـة، لأنه لم يكن في نـظر المشركين يشكل خطراً عليهم. . .

حتى إذا بلغ عدد المسلمين أربعين مسلماً، فإنه لم يعد ممكناً أن تبقى الدعوة ـ كفكرة وعقيدة ـ سراً خفياً في بيئة مثل بيئـة مكة المكرمة التي كان يسودها النظام القبلي. . . وإن كان من الممكن أن تُبذل احتياطات كثيرة لجعل الدعوة ونشاطاتها وكثير من أفرادها تحت أغطية السرية والكتمان.

ولذلك فإنه عندما بلغ عدد المسلمين الأربعين، وذلك بعـد ثلاث سنوات تقريباً من البعثة، نزل قوله تعالى: ﴿**فاصـدع بما تؤمَر وأعرِضْ عن المشركين**. . .﴾ [الحجر: ٩٤] مكلفـاً النبي ﷺ بالجهر بالدعـوة وإعلانها، ومتكفـلاً للنبي ﷺ بدفـع خطر المشركين عنه وعن دعوته ﴿. . . **إنـا كفيناك المستهـزئين**. . .﴾ [الحجر: ٩٥]، وعندئذٍ خرج النبي ﷺ ليعلن على الملأ أنه رسول الله إليهم، وأنه نذير لهم بين يدي عذاب شديد إن هم أقاموا على ضلالات الشرك والوثنية، وأن عليهم أن يعبدوا الله وحده. . .

وبدأ بعشيرته كما أمره الله تعالى إذ قال: ﴿وأَنْذِرْ عَشيرتَكَ الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وذلك لأن المرء مسؤول عن نفسه أولاً، ثم عمن يلوذ به من الأهل والأصدقاء... ثم عن بقية الناس من حوله.

أخرج مسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: لما أنزلت ﴿وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقربين﴾ قام رسول الله ﷺ على الصفا، فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفيةِ بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم»[1].

وأخرج مسلم أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقربين﴾ ورهطك منهم المخلصين[2]. خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب...» فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقيّ؟»،

(١) رواه مسلم في الإيمان رقم (٢٠٥)

(٢) ورهطك منهم المخلصين: قال النووي: الظاهر أن هذا كان قرآناً أنزل ثم نسخت تلاوته، ولم تقع هذه الزيادة في روايات البخاري، والحديث بتمامه رواه مسلم في الإيمان رقم (٢٠٨)، وهو في البخاري كتاب التفسير رقم (٤٧٧٠ - ٤٧٧١)

قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً، قال: «فإني نـذير لكم بـين يديّ عذاب شديد. . .»، قال: فقال أبو لهب: تباً لك، أما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام. فنزلت هذه السورة (تبت يدا أبي لهب وقد وتب) كذا قرأ الأعمش[1] إلى آخر السورة.

ثم إن النبي ﷺ توجه بدعوته إلى سائر قومـه، ليبدأ بـذلك مرحلة جديدة في سير دعوته يجابه فيها قومه بمبادئها علناً وصراحةً، واضعـاً قدمـه في أرض المحن الشديـدة التي ستمتد بعـد ذلك سنوات طوالاً، تنال شدائدها منه ﷺ ، وتنال كلَّ مَن عرف منه الإسلام، على نحو ما قرأنا في مبحث (الابتلاء والمحنة).

ولكن ماذا كان يعني الجهر بالدعوة؟ وإلى أي مدى كان هذا الجهر؟

هذان أمران من أهم ما يجب علينا معرفته في أسلوب الدعوة، ولن أتحدث في الإجابة على هذين السؤالين ولكني سأدع الأحداث التالية تشرح لنا مدى الجهر بالدعوة وما يعنيه هذا الجهر.

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

تأخر إسلام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ما بعد الجهر بالدعوة بثلاث سنوات، فقد ذكر أنه أسلم في السنة السادسة

---

(١) أي أن الأعمش قرأها بزيادة «قد» بخلاف القراءة المشهورة وهي شاذة.

للبعثة، أي بعد هجرة الحبشة الأولى التي حدثت في السنة الخامسة للبعثة.

وفي قصة إسلامه التي يرويها عامة من ألَّف في السيرة تقريباً[1] ورد أن عمر رضي الله عنه توجه متوشحاً سيفه يريد قتل النبي ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا (كذا، دون تعيين)، فلقيه نعيم بن مسعود النحام، وفي رواية: سعد بن أبي وقاص، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابىء الذي فرق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسبّ آلهتها فأقتله! فقال له نعيم: والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، وقد قتلتَ محمداً؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ فقال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما.

وفوجىء عمر بخبر إسلام أخته وختنه، فتوجه إليهما مغضباً،

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٣ وعيون الأثر ج ١ ص ١٢٢ وقد أسندها الأستاذ علي الطنطاوي في كتاب سيرة عمر بن الخطاب الذي ألفه بالاشتراك مع أخيه الأستاذ ناجي إلى: شرح المواهب: ١: ٣١٧ وتاريخ الخميس ١: ٢٩٥، وأسد الغابة ٤: ٥٤، الروض الأنف: ١: ٢١٧، تاريخ الخلفاء ٤٣ ـ ٤٤.

وكان عندهما خباب بن الأرتّ معه صحيفة فيها سورة (طه) يقرئهما إياها، فلما سمعوا بحسّ عمر تغيّب خباب في مخدع لهم وأخذت فاطمة الصحيفة فأخفتها، وكان عمر قد سمع قراءتهم عندما دنا من البيت، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت؟

قالا له: ما سمعتَ شيئاً. قال: بلى والله، لقد سمعت أنكما تابعتما محمداً على دينه. وبطش بختنه سعيد بن زيد. فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها، فضربها وشجّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم لقد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم، ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً...

فلما قرأ في هذه الصحيفة صدراً من سورة (طه) قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع خباب ذلك خرج إليه وقال: يا عمر إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته وهو يقول: «اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر! . فقال له عمر عند ذلك: فدلّني يا خباب على محمد، حتى آتيه فأسلم...! فتوجّها معاً إلى دار الأرقم وأسلم عمر بن الخطاب.

قال عبدالله بن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر.

من خلال هذه القصة التي عرضتها بشيء من الإيجاز تتضح أمور:

- بعد ثلاثة أعوام من الجهر بالدعوة، لم يكن عمر يعلم أن أهل بيته قد أسلموا. . . !
- وبعد ثلاثة أعوام من الجهر بالدعوة لم يكن عمر يعرف الدار التي كان يجتمع فيها النبي ﷺ وأصحابه. كل الذي يعلمه أنهم يجتمعون في دار قرب الصفا. . . ولذلك طلب من خباب أن يدله على «محمد» ﷺ.

- لم يكن الجهر بالدعوة يعني إعلان كل مسلم إسلامه، ولم يكن يعني علنية العمل الإسلامي ولا إظهار مقر الدعوة. . . إنما كان يعني علنية مبادىء الدعوة والجهر بها. . . .

ولذلك كانت هجرة من هاجر إلى الحبشة سراً. . . وكانت بيعتا العقبة الأولى والثانية سراً مكتوماً.

***

نعم كانت دعوة النبي ﷺ لقومه أو للقبائل الوافدة إلى مكة في المواسم علنية ظاهرة، وهذا ما عرّضه لكثير من العنف والأذى إذ جعل المشركين يقاومونه مقاومة شديدة، ودفع بأبي لهب إلى مناوأته ووضع العقبات في وجهه، بل جعل يتبعه من ورائه وهو يصيح: لا تطيعوه، فإنه صابىء كذاب! وهذا مما جعل الوافدين يسيئون ردّ

النبي ﷺ . . . ويردونه أقبح الرد وأشنعه.

حتى لقي رهطاً من الخزرج كتب الله لهم الهداية، فاستجابوا.

بيعة العقبة

ولقاء النبي ﷺ مع الرهط الخزرجيين وما ترتب عليه من المبايعة في السنة التالية والتي بعدها، حدث هام يجدر بمن يدرس أسلوب الدعوة الإسلامية أن يقف عنده ويتأمله. . . والذي سأتناوله في هذه الدراسة إنما هو العرض التحليلي لهذا الحدث. . . ضمن المقومات التربوية التي سبق أن عرضناها.

لقد كان أهل المدينة يعانون من تمزق واقتتال بين الفريق الخزرجي والفريق الأوسي، وكانوا على اتصال بأهل الكتاب وهم اليهود المجاورون لهم في أطراف يثرب، وكانوا باتصالهم بهم قد سمعوا بأن نبياً قد أظلّ زمانه مبعوث الآن، وكان اليهود يتوعّدون أهل يثرب به. ولذلك فقد كانوا ـ بما فضل الله عليهم ـ مبادرين إلى الاستجابة له، وكانوا يأملون أن يجمع الله شتات قومهم بهذا النبي الكريم ﷺ ، وعادوا وهم يحملون البشارة إلى قومهم حتى لم يبقَ بيت في المدينة إلا وفيه ذكر النبي ﷺ.

وفي العام التالي قدم مكة اثنا عشر رجلاً فيهم الأكثرية الخزرجية وفيهم بعض الأوس، جمعهم الإسلام عند النبي ﷺ فبايعوه على قلب واحد البيعة التالية:

. . . «أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشّيتم من ذلك شيئاً فأمرُكم إلى الله عزّ وجلّ إن شاء عذّب وإن شاء غفر»[1].

وقد سميت «بيعة النساء» لعدم ذكر القتال فيها.

وأرسل معهم مصعب بن عمير ليعلمهم الإسلام. . .

وفي العام التالي وافى الموسم ثلاثة وسبعون رجلاً معهم امرأتان. . .

عن ابن إسحاق قال قال كعب بن مالك رضي الله عنه: (فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ، نمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا. . .).

ثم قال كعب (. . . فتكلم رسول الله ﷺ ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»).

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٣٤.

وقال في حديثه أيضاً (. . . وقد كان رسول الله ﷺ قال: **«أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم»**. فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فلما تخيّرهم قال للنقباء: «أنتم كفلاء على قومكم، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي».

فلما بايعنا رسول الله ﷺ، قال: «ارفضّوا إلى رحالكم» فقال له العباس بن عبادة بن نَضْلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم»)[1].

وبعد.. فإن ملامح التدرج المرحلي واضحة في قصة بيعة العقبة التي أوردناها:

- دعوة واستجابة ثم إعلان في المدينة التي تترقب النبي الجديد الذي يتوعدهم به اليهود...
- بيعة على التزام العقيدة الصحيحة والفضائل التي تستجيب لها كل فطرة سليمة وعلى التزام الطاعة واجتناب المعصية...
- وتنبيه إلى المصير الذي ينتظر الإنسان المحسن أو المسيء.
- وقد تلا هذه البيعة إرسال دعاة معهم ليعلموهم الإسلام ولينشروا الدعوة في المدينة المنورة.

---

(١) انظر الخبر بتمامه في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٤٨.

- بيعة العقبة الثانية التي تضمنت:

أ - التعهد بحماية الدعوة عسكرياً. . .

ب - تعيين مسؤولين لرعاية المسلمين في المدينة. . . .

كما تتجلى بوضوح ملامح السرية والكتمان في بيعة العقبة الثانية وذلك من خلال الأمور التالية:

- اختيار الموعد الزماني (الثلث الثاني من ليلة أوسط أيام التشريق).
- اختيار الموعد المكاني (في الشعب عند العقبة).
- لاحظ كلمات سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه: نتسلل تسلل القطا مستخفين. . .
- إصرار النبي ﷺ عليهم بالرجوع إلى رحالهم، وكأن شيئاً لم يكن. . . !

والأمر الجديد في هذه البيعة هو المبايعة على أن يحمي الأنصار الدعوة الإسلامية ممثلة بشخص النبي ﷺ ، وأن يدافعوا عنه كما يدافعون عن أنفسهم وأعراضهم، وهو الذي دفع بالعباس بن عبادة أن يعلن الاستعداد لمبادأة المشركين بالقتال فوراً. . . إنها عاطفة صادقة، ولكن «لم نؤمر بعد!» لم يحن الوقت المناسب الذي ينسجم مع مبادىء الدعوة، وينسجم مع ظروفها وإمكاناتها أيضاً. . . !.

* * *

الوعي الذي يهدف إلى سلامة الدعوة وتحقيق أهدافها:

تربية ومنهج . . . !

من خلال ما عرضناه في المبحث السابق، تتجلى لنا التربية النبوية الهادفة للمسلمين والتي كانت تثير فيهم ذلك الوعي، وأريد بالوعي هنا ذلك الشعور اليقظ لمصلحة الدعوة، والجدّية في العمل والنشاط من أجلها. وهذا الوعي قد تحلى به جميع المسلمين تقريباً حتى النساء والصغار.

فعليّ رضي الله عنه أسلم وهو في العاشرة من عمره، وعندما فهم ضرورة كتمان إسلامه التزمه وأخفى إسلامه حتى عن أبيه . . . !

وأم جميل بنت الخطاب عندما سألتها أم الخير أم أبي بكر رضي الله عنه عن حال النبي ﷺ عندما طلب منها أبو بكر ذلك، تجاهلت أبا بكر وتجاهلت النبي ﷺ، وذهبت بأسلوب طريف بنفسها إلى أبي بكر . . . وعندما سألها أبو بكر عنه ﷺ لفتت نظره إلى وجود أمه ! ![1]

والأنصار يواعدون النبي ﷺ سراً في شعب العقبة وفي الثلث الثاني من الليل والناس نيام، وعندما يسأل أهل مكة عن حقيقة ما

(١) سبق أن عرضت خبر إسلام علي بن أبي طالب في مطلع مبحث التدرج المرحلي وذكرت قصة أبي بكر مع أمه وأم جميل في مبحث الابتلاء والمحنة.

جرى في العقبة لا يتكلم أحد منهم بشيء . . . ويكتفون بالنظر إلى بعضهم بينما ينكر مشركوهم أن يكون قد جرى منهم شيء مع رسول الله ﷺ (ولقد صدقوا!!).

وللدعوة مقرّ يكتمون خبره عن المشركين، ولا يرشدون أحداً إليه إلا إن وثقوا أنه يريد الإسلام وعندئذٍ يصحبونه إلى هذا المقرّ، كما فعل خباب مع عمر رضي الله عنه يوم أسلم . . .

***

النظام الدقيق في أسلوب العمل وخطته:

تلاؤم مع الظروف . . . وأخذ بالأسباب.

التزم النبي ﷺ النظام الدقيق في أسلوب عمله وأطوار دعوته، ويتجلى ذلك النظام الذي تتسم به دعوته ﷺ (وهو في ذلك مبلِّغ عن ربه) من خلال السرية التي التزمها سواء في الطور الذي كان يحرص فيه على كتمان مبادىء الدعوة ونشاطها معاً، أو عندما جهر بدعوته واكتفى بإخفاء مظاهر عملها، ولعل اتخاذ دار الأرقم كمقرّ يلتقي فيه النبي ﷺ مع أصحابه هو مظهر آخر من مظاهر الخطة النبوية في الدعوة الإسلامية.

ومن أبرز مظاهر النظام الذي التزمه النبي ﷺ في سير الدعوة: اتخاذ «الأمير» فقد ذكر ابن هشام في سيرته أن النبي ﷺ جعل

عثمان بن مظعون رضي الله عنه أميراً على المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة في المرة الأولى[1]، وجعل عليهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في المرة الثانية، وهو الذي تولى شرح حقيقة بواعث هجرتهم للنجاشي عندما أرسل المشركون إليه يطلبونهم، مدّعين بأنهم غلمان سفهاء جاؤوا بدين مبتدع غريب. . . !

وظاهرة تعيين أمراء تتجلى أيضاً يوم بيعة العقبة الثانية، إذ اختار النبي ﷺ من القوم اثني عشر رجلاً، وجعلهم نقباء على قومهم، وقال لهم: أنتم كفلاء على قومكم. . .

وفي الحقيقة إن جميع ملامح الخطة النبوية متداخلة مع بعضها، فالتدرج المرحلي كان يتم بناء على وعي ونظام، والوعي كان يقتضي النظام الدقيق الشامل، ويستلزم تدرجاً مرحلياً مدروساً منسجماً مع مقتضيات كل مرحلة تمر بها الدعوة. . . وهكذا.

وفي ضوء هذا المنهج العملي، تم انتقال الدعوة من مرحلة إعداد إلى مرحلة إعداد أخرى. . . وضمن خطوطه الدقيقة، تمت أخطر خطوة للحركة الإسلامية انتقلت بها من مرحلة إعداد الفرد إلى إقامة المجتمع، ألا وهي الهجرة إلى المدينة المنورة. وفي الصفحات التالية دراسة لهذه الخطوة الواسعة من جميع جوانبها كصورة لنموذج من نماذج الانتقال من مرحلة بناء الفرد إلى مرحلة إنشاء المجتمع.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢٣.

الهجرة
خطوة نحو إقامة المجتمع الإسلامي
وثمرة لإعداد طويل

هجرة الإنسان وطنه أمر صعب، ومرّ على القلب مذاقه...

ولقد تجشم الرعيل الأول في مكّة مصاعب الهجرة ومرارتها أكثر من مرة!

فقد هاجر كثير منهم في السنة الخامسة للبعثة إلى الحبشة، وهاجروا إليها مرة أخرى بعد سنتين، تاركين وراءهم بيوتهم وأرحامهم ومرابع نشأتهم وذكرياتهم... مخلِّفين وراءهم الوطن... وكم يحن القلب إلى الوطن...!

ولقد هان عليهم ذلك كله أمام خوفهم الفتنة عن دينهم وعقيدتهم، تحت سياط التعذيب والاضطهاد الذي لاقوه من طغاة مكة.

ثم هاجروا أخيراً إلى المدينة المنورة، وذلك بعد ثلاثة عشر عاماً من البعثة، غير أن هجرتهم هذه المرة كانت تحمل معنى آخر،

وهدفاً أبعد، مع ما تحمله من معاني التضحية العظيمة في سبيل العقيدة.

لقد كانت الهجرة إلى الحبشة خشية الفتنة، وبحثاً عن متنفّس من الضيق الذي كان يعاني منه الصحابة، وينالهم من المشركين، فقد قال النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم عندما تفاقم الاضطهاد والتعذيب واشتدت المحنة: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، **حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**».

... وخرجوا إلى الحبشة، ليجدوا فيها ذلك الظل الذي يطمئنون إليه، ويتمكنون فيه من أداء عباداتهم والتزود من معين طاعة ربهم والتقرب إليه والسجود بين يديه، بعيداً عن متناول سياط المشركين وطغاتهم.

خرجوا إلى الحبشة، مؤقتاً... ! منتظرين «حتى **يجعل** الله لهم مخرجاً مما هم فيه» فطريقهم ليست نهايته في أرض الحبشة، إنما الحبشة بالنسبة لهم بمثابة شجرة يستظلون تحتها في طريقهم الشاق الطويل، لينالوا قسطاً من الراحة والاطمئنان يتبلغون بهما لإتمام السير.

أما الهجرة إلى المدينة، فقد كانت ـ إلى جانب كونها تضحية في سبيل العقيدة ـ انتقالاً في قاعدة الحركة من أرض إلى أرض،

وتحوُّلاً في العمل من أسلوب إلى أسلوب آخر يختلف عنه ويتكامل معه... وانتقالاً من مرحلة إلى مرحلة أخرى جديدة!

لقد كانت الهجرة إلى المدينة المنورة انتقالاً من أرض يتحكم فيها الشرك وطغاته، إلى أرض يعلن أهلها الولاء لله ولرسوله... وانتقالاً من مرحلة إعداد الفرد إلى مرحلة إقامة المجتمع الذي اشتدت قواعده تماسكاً وثباتاً بعد طول إعداد. أجل، هذا الانتقال لم يتم إلا بعد طول إعداد، فقد تلقى المسلمون في مكة على مدى ثلاثة عشر عاماً الدرس إثر الدرس في تصحيح العقيدة وترسيخها في قلوبهم حتى لا ينال منها التشكيك ولا يتسلل إليها الريب، وتلقوا الدرس إثر الدرس من معين التربية الربانية التي ربطت قلوبهم بالله ففاضت قلوبهم بحبه وخشعت قلوبهم خشية منه... وتلقوا من المحن والشدائد المطارق العنيفة حتى غدوا تحتها لبنات صلبة لا تلين ولا تتفتت. كل ذلك ضمن منهجية واعية، حتى تم إعدادهم وغدوا أهلاً لتجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة أخرى يتبوؤون فيها أماكنهم في المجتمع الإسلامي الذي سيولد بهجرتهم.

وقد مهد النبي ﷺ الطريق بين يدي هذه الهجرة.

عندما بدأ ﷺ يعرض نفسه ودعوته على القبائل التي تفد إلى مكة في المواسم، أملاً في الوصول إلى الأرض الملائمة لإقامة مجتمعه، ولن تكون الأرض ملائمة إلا إذا ارتضى أهلها الإسلام

وتمسكوا به وأعلنوا استعدادهم لاحتضان الدعوة والدفاع عنها، وأن يجعلوا من أرضهم وطناً لها، ويجعلوا من أنفسهم حراساً لها وحماة للمجتمع الإسلامي فيها.

وقد كان موقف القبائل من دعوته ﷺ متبايناً، فبعضهم كان يرد الرد القبيح السيء، شأن بني حنيفة، الذين كانوا أقبح الناس رداً على النبي ﷺ. وبعضهم كان يأبى الاستجابة؛ دون أن يسيء في الرد. وبعضهم كان يعتذر بالعجز عن تحمل مسؤولية الدفاع عن الدعوة ضد المناوئين لها، وهذا ما فعله بنو شيبان.

ولقد تابع النبي ﷺ دعوته صابراً على ما يجده من مصاعب، سواء كانت من الوافدين أم من أهل مكة نفسها... بل من عمه أبي لهب أقرب الناس إليه، الذي قاوم سعيه بشدة ونذر نفسه لمحاربة دعوته ﷺ، وأخيراً التقى النبي ﷺ بنفر من الخزرج. قال ابن إسحاق: (... فدعاهم النبي ﷺ إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله بهم، أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله عز وجل، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلّموا والله إنه للنبي الذي توعّدكم به يهود، فلا يسبقنكم

إليه. فأجابوه إلى ما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. وقالوا: إنّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك...).

بهذا اللقاء البسيط، بدأت تلوح في الأفق ملامح مرحلة جديدة في حياة الدعوة الإسلامية، وأهمية هذا اللقاء تبدو من خلال مبادرة النفر إلى الإسلام وحرصِهم على دعوة قومهم إليه، وجدّيتهم في الاستجابة والاندفاع... وهذا هو القبس الذي يمكن أن تأمل الدعوة الإسلامية منه الخير وتعول عليه...

ولقد صدق النفر فيما قالوا، إذ مضوا إلى قومهم يبشرون ببعثة النبي ﷺ ودعوته، حتى إذا مضى عام كامل وبدأت الوفود تتجه نحو مكة في موسم الحج خرج من يثرب فيمن خرج اثنا عشر رجلاً، يريدون الالتقاء بالنبي ﷺ ومبايعته على الإسلام.

أخرج البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال:

كنت فيمن حضر العقبة، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على (بيعة النساء)[1]، وذلك قبل أن تفرض الحرب، على

(١) أي بيعة تخلو بنودها من ذكر الحرب والقتال، وإنما سميت بذلك لأنها تشابه في صيغتها صيغة بيعة النساء التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن... الآية﴾ [الممتحنة: ١٢].

أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا ولا أرجلنا ولا نعصيه في معروف فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشّيتم فأمركم إلى الله عزّ وجلّ، إن شاء عذّب وإن شاء غفر.

قال ابن إسحاق (فيما يرويه عنه ابن هشام في سيرته): . . . فلما انصرف القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير (ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي) وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين.

وذكر ابن سيد الناس في (عيون الأثر) أنه ﷺ بعث عبدالله بن أم مكتوم أيضاً للمهمة نفسها.

* * *

بيعة العقبة الأولى، خطوة هامة جداً على الطريق نحو إقامة المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة. فهي تعبير صادق عن صدق الأنصار، إذ أتوا يمدون أكف العهد الصادق والمبايعة الوفية على التمسك بالإسلام عقيدة ومنهاجاً وخلقاً.

ولا شك أن جلسة واحدة تضمنت تلك البيعة الهامة التي لها تأثيرها على حياتهم وسلوكهم لا تعني استكمال الإعداد واستيفاء كل المقومات اللازمة لتحمل مسؤوليات تلك البيعة والقدرة على نشر مبادئها، ولا تعني النمو التربوي الكافي لتحمل تلك الأعباء ـ

وهي ثقيلة ـ بيقين وصدق واندفاع، ولذلك كان لا بد من إرسال من يقوم بتربيتهم وإعدادهم بتعليمهم الإسلام والقرآن وبنشر الدعوة وإذاعتها في جميع أنحاء المدينة بعيداً عن أسباب الإثارات القبلية التي لم تزل الدماء التي سالت بسببها لزجة على أجسادهم.

وقد اختار النبي ﷺ لهذه المهمة الشاقة، ذلك الشاب الطاهر الصادق مصعب بن عمير، الذي ضحى بالنعيم والرفاهية والرخاء في سبيل عقيدته، وصبر على ألوان الشدة في سبيل ذلك. وقد كان مصعب رضي الله عنه نعم الداعية الدؤوب في عمله والحكيم في أسلوبه والفقيه بدينه والمؤثر في حديثه. وقد أجرى الله على يده الخير الكثير، فقد أسلم على يديه كثير من أهل المدينة وزعمائها، وفي مقدمتهم: سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير رضي الله عنهما.

وأمضى مصعب رضي الله عنه في المدينة قرابة عام وهو يدعو الناس ويعلمهم الإسلام، ويقرئهم القرآن، وهكذا مضى عام حافل بالدعوة والإعداد والتوجيه والإرشاد، وكانت تربة المدينة المنورة سريعة التمثل لمبادىء الدعوة بما سخره الله من أسباب الاستجابة عند أهلها، وكان في عرض مبادىء الإسلام عليهم تصحيح جذري لتصوراتهم وعقائدهم وطبيعة تفكيرهم، أدى إلى اندفاع شديد نحو تطبيق الإسلام والحرص على استيعابه. فتشربت قلوبهم آيات القرآن وتفاعلت عقولهم مع إرشاداته،

وفاضت أفئدتهم بحب الله وحب نبيه ﷺ ، حتى غدوا يتلهفون للساعة التي يلتقون فيها مع النبي ﷺ .

* * *

لقد استدار الزمان. . . ودنا موسم الحج، وبدأت الوفود تتجه نحو مكة. . .

وتحركت المدينة بوفدها، الذي يضم هذه المرة عدداً كبيراً من المسلمين يبلغ ثلاثة وسبعين رجلاً، معهم امرأتان إلى جانب من خرج من مشركي المدينة آنذاك.

وهناك في مكة واعد الوفد رسول الله ﷺ في العقبة ليلة أوسط أيام التشريق، وكان الوعد سراً مكتوماً لا ينبغي أن يسمع به أحد.

عن ابن إسحاق قال: قال كعب: (. . . فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا لميعاد رسول الله ﷺ ، نتسلل تسلل القطا، مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، أم عمارة، إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع.

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له (وفي رواية أن أبا بكر رضي الله عنه وقف عيناً على فم الشعب من جانب ووقف علي رضي الله عنه عيناً أيضاً على فم الشعب من طرفه الآخر). فلما جلس كان أول متكلم العباس. . . فاستوثق العباس من الأنصار على تعهدهم بحماية النبي ﷺ، والدفاع عنه إن هو خرج إليهم، ثم تكلم رسول الله فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم: والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايِعْنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر.

واعترض القومَ أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها (يعني اليهود)؛ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم).

وقد أوضح عبادة بن الصامت رضي الله عنه بنود بيعة العقبة الثانية فقال:

بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على: السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم.

* * *

مضى القوم بعد أن بايعوا رسول الله ﷺ وكلف اثني عشر رجلاً منهم سماهم النقباء بأن يرعوا قومهم ويولوهم العناية، وجعلهم كفلاء عليهم...

مضوا هذه المرة وقد بايعوه بيعة الحرب...!

وجدير بالملاحظة أن بيعة الحرب لم تتم إلا بعد إعلان وفدهم الإسلام بعامين كاملين أي بعد تأهيل وإعداد استمر عامين كاملين.

وهكذا تم الأمر على تدرج ينسجم مع المنهج التربوي الذي نهجت عليه الدعوة من أول يوم:

- ينسجم مع تقويم العقيدة أولاً، لأنها مفترق الطريق بين الإسلام والكفر، ولأنه الباب الذي لا بد من دخوله أولاً.
- وينسجم مع التربية الربانية التي جرد للقيام بها داعية قدوة ومرشد صالح هو مصعب بن عمير رضي الله عنه.
- ولئن كانت الأخبار قليلة عن الابتلاء والمحنة التي لقيها المسلمون من أهل المدينة قبل الهجرة، فذلك مرده إلى أمرين:

أحدهما: شدة إقبال أهل المدينة إلى الإسلام، وموقفهم الإيجابي منه، لما تميز به واقعهم من تمزق ولما كانوا يسمعونه من اليهود عن بعثته ﷺ.

والآخر: شيء من الحيطة والتكتم أحاط المسلمون دعوتهم بها في أول الأمر، حتى لا تبلغ إلا من وثقوا باستجابته وصدقه، وهذا ما نلمسه من خلال موقفهم يوم خرجوا لمبايعة النبي ﷺ مع قومهم المشركين، ولكن بعد أن عادوا، وقد كثروا، وضمت صفوفهم كثيرين من الزعماء، لم يعد ثمة ما يدعو إلى التكتم في الإسلام، والإسلام ستقوم دولته بينهم عما قريب.

وهذا التدرج أخيراً ينسجم مع الوعي الذي تميزت به الدعوة.

يقول الدكتور «عماد الدين الخليل» في كتابه (دراسة في السيرة) وهو يعلق على بيعة العقبة الأولى:

(. . . جاؤوا لا ليعلنوا الإسلام هذه المرة، بل ليبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، تمسكاً بأهدافه والتزاماً بقيمه وأخلاقياته، ولم يشأ الرسول أن يتسرع الخطوة التالية ويعرض عليهم طلبه القديم أن يمنحوه أرضهم وبلدهم وأن يحموه. . . إنه، بذكائه العجيب، وبالهدى الإلهي الذي يمده بنوره، كان ينتظر نتيجة مساعي أصحابه الجدد، ويجس النبض ويختبر الإمكانات. . إنه في المرة الأولى اكتفى بأن يعرض عليهم الإسلام، وأن يودّع الستة الذين

أسلموا، دون أية بيعة، وفي المرة الثانية، بايعوه على الجانب السلمي ـ إذا صح التعبير ـ من برنامج الإسلام: «أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يزنون ولا يسرقون، ولا يقتلون أولادهم، ولا يأتون ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف» وأرسل معهم داعيته الشاب مصعب بن عمير الذي لم يشأ أن يجازف به في المرة الأولى. أرسله هذه المرة بعد أن استبانت له ملامح المستقبل لكي يتولى شؤون الدعوة والتثقيف العقائدي هناك)[1].

إنه المنهج الذي: هدى الله نبيه إلى التزامه.

في البيعة الأولى بايعه هؤلاء الأنصار الجدد على الإسلام عقيدة ومنهاجاً وتربية، ولا أقول على الجانب السلمي من برنامج الإسلام... !

وفي البيعة الثانية بايعه الأنصار على حماية الدعوة، واحتضان المجتمع الإسلامي الذي نضجت ثماره، واشتدت قواعده قوة وصلابة.

إن هاتين البيعتين أمران متكاملان ضمن المنهج التربوي للدعوة الإسلامية وإن الأمر الأول هو: المضمون، والأمر الثاني ـ وهو بيعة الحرب ـ هو السياج الذي يحمي ذلك المضمون. البيعة

---

(١) دراسة في السيرة، د. عماد الدين خليل ص ١٣١. كذا ورد النص في كتاب دراسة في السيرة، وفق العزو، وبنصب لا يتركوا وترك لا يزنون وما بعدها على الرفع، ولعله سبق قلم.

الأولى هي: إعلان الإسلام لله والتزام أمره واجتناب نهيه. والبيعة الثانية: مرحلة نضوج في تمثل البيعة الأولى، يعبر عنه ذلك الاستعداد للتضحية في سبيل ما آمنوا به.

* * *

نعم، كانت بيعة الحرب بعد عامين من إعلان القوم الإسلام، وليس فور إعلانهم.

بعد عامين إذ تم إعدادهم حتى غدوا موضع ثقة وأهلاً لهذه البيعة، ويلاحظ أن بيعة الحرب لم يسبق أن تمت قبل اليوم مع أي مسلم، إنما حصلت عندما وجدت الدعوة في هؤلاء الأنصار وفي الأرض التي يقيمون فيها المعقل الملائم الذي ينطلق منه المحاربون، لأن مكة بوضعها عندئذٍ لم تكن لتصلح للحرب...

وقد اقتضت رحمة الله بعباده (أن لا يحملهم واجب القتال، إلى أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه، ويلوذون به، وقد كانت المدينة المنورة أول دار إسلام)[1].

ويستوقفني، وأنا أدرس بيعة العقبة الثانية، الاندفاع الحماسي من العباس بن عبادة الذي قال بعد البيعة: «والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا» فأجابه النبي ﷺ «لم نؤمر بذلك...» إنه لحماس طيب واستجابة مباشرة،

(١) فقه السيرة د. محمد سعيد رمضان ص ١٧٢.

ولكن «لم نؤمر بذلك!».

وقد سبق العباس إلى مثل طلبه كثيرون، استأذنوا رسول الله في الجهاد ولكن جاءهم الجواب:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧].

ذلك لأن الجهاد يجب أن تكون دوافعه منطلقةً من التربية الإسلامية بالذات، ولا يجوز أن يكون الاندفاع تشفياً، أو نفسياً، قد يأتي التشفي نتيجة عندما يقتضي الإسلام منا الجهاد، ولكن لا ينبغي أن يكون غايةً ومنطلقاً. ولا ينبغي أن يكون الجهاد تعجلاً واندفاعاً عاطفياً، ورغبة في الخلاص بأسرع سبيل، لأن الجهاد ممارسة لمهمة شاقة بنفس متزنة هادئة وبعيداً عن الرغبات الذاتية والأهواء المتعجلة في الوصول.

أجل، ليس الجهاد انتقاماً، وإن كان الانتقام نتيجة تحصل بالجهاد، والذين يندفعون إلى الجهاد للانتقام أو تعجلاً لبلوغ الهدف المنشود، أو تشفياً، يقال لهم: كُفُّوا أيدِيَكم وأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ، إنكم لا زلتم في حقل الإعداد والتأهيل، والجهاد... أمامكم...!

المتعجلون في عهد النبي ﷺ، حدّث عنهم ربُّنا سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ألم تَرَ إلى الذينَ قِيلَ لهم كُفُّوا أيديَكم وأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ، فلما كُتب عليهمُ القتالُ إذا فريقٌ منهم يَخْشَونَ الناسَ كخشيةِ الله أو أشدَّ خشيةً، وقالوا: رَبَّنا لِمَ كتبتَ علينا القتالَ؟ لولا أخَّرْتَنا إلى أجلٍ قريبٍ، قُلْ متاعُ الدنيا قليلٌ، والآخرةُ خيرٌ لِمَنِ ٱتَّقى، ولا تُظلمونَ فتيلاً﴾ [النساء: ٧٦].

والمندفعون إلى الجهاد قبل أوانه بدوافع غير صحيحة، أضعف من أن يجاهدوا بالدوافع الصحيحة... لوجه الله وحده... ورغبة في حماية دعوته، ورفع رايته، عندما يحين الأوان لذلك...!

لئن كان وجوب الزكاة متوقفاً على النصاب والحول... فإن للجهاد نصاباً وحولاً، ولا جهاد قبل تمام النصاب ومرور الحول... ونضوج الثمار... واشتداد اللبنات وصلابتها... واكتمال البناء... ولا جهاد قبل تمام الإعداد والتأهيل بالتربية الربانية والعقيدة الصحيحة والابتلاء... ضمن منهج واعٍ.

من أجل ذلك أرشد الله أولئك المتحمسين إلى السبيل الأقوم، مبيناً أن الاندفاع الذي يأتي نتيجة نفاذ الصبر وتعجُّل الوصول، أو للتشفي والانتقام، ونحو ذلك؛ ليس هو ذلك الاندفاع الصحيح الذي يبقى عندما يغدو الجهاد مهمة إسلامية وواجباً ربانياً بعيداً عن حظوظ النفس ودوافع الهوى والضعف البشري.

قال الطبري في تفسيره: (حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة: قوله تعالى ﴿**ألم تَرَ إلى الذين قِيل لهم كُفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ**﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿**إلى أجلٍ قريب**﴾ قال: كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ، وهو يومئذٍ بمكة قبل الهجرة، تسرعوا إلى القتال، فقالوا للنبي ﷺ: ذرنا نتخذ معاول فنقاتل بها المشركين! فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، قال: لم أؤمر بذلك. فلما كانت الهجرة وأُمر بالقتال، كره القوم ذلك، فصنعوا ما تسمعون، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿**قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتَّقى ولا تظلمون فتيلاً**﴾[1]).

* * *

ثم إن بيعة العقبة الثانية تعتبر اجتيازاً لمرحلة الإعداد والتأهيل بالنسبة للفئة المؤمنة، ودعوة لها إلى اتخاذ مواقعها الجديدة، فقد وجدت الأرض التي سيقام عليها المجتمع الإسلامي، وقد أُعِدَّ أهلها لتحمل مسؤوليات تطبيق الإسلام والدفاع عنه... ولم يعد أمام الفئة المؤمنة إلا أن تضحي بالأرض والأهل والمال مرة ثانية، ولكن ليس من أجل العيش في ظل الأمن والسلام، والبعد عن سياط الاضطهاد والعذاب في هذه المرة، وإنما من أجل ممارسة مهام أعظم، ووظائف أهم... أجل، من أجل إقامة المجتمع

(١) تفسير الطبري ج ٨ ص ٥٥٠.

الإسلامي . . . وإنها لمهمة شاقة وصعبة ولكنهم رجالها الأكفاء.

فبناؤهم صلب متين، وليس هشاً ولا متداعياً، ونفوسهم التي نهلت من معين القرآن وتربيته السنوات الطويلة هي اليوم في المستوى الجدير بحمل تلك الأمانة العظيمة.

أجل لقد حان موعد الهجرة، ولكن ليس إلى ظل شجرة من أجل التقاط الأنفاس أو نيل قسط من الراحة، ولكن إلى المدينة ووبائها وجوعها وعطشها، وإلى تحمل أعباء جديدة . . . إلى إقامة المجتمع الإسلامي وحمايته ببذل الأنفس والأموال.

* * *

فزع المشركون من مبايعة أهل المدينة للنبي ﷺ بيعة الحرب، وشعروا بالخطر، لأنها كانت تعني انتقال النبي ﷺ من أرض تحت سلطانهم، ومن متناول سياطهم، إلى أرض بعيدة تقرّ بدعوته، وتؤمن برسالته وتلتزم بالدفاع عنه وعن دينه . . . فزعوا لأنها تعني انتقال الدعوة من مركز الضعف إلى مركز القوة . . . ! ولأنها كانت تعني ميلاد الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

ودفعهم ذلك كله إلى التضييق على المسلمين، ليحولوا دون انتقالهم إلى المدينة المنورة فزادوا من إيذائهم واضطهادهم وتعذيبهم . . لعلهم يفتنون.

ولكن الله بالغ أمره . . . ! فالدين دينه، والمسلمون حزبه،

والنبي ﷺ نبيه، وقد وعده الله بالنصر والتأييد والعصمة.

روى ابن سعد في طبقاته عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«لما صدر السبعون من عند النبي ﷺ طابت نفسه، فقد جعل الله له منعة وقوماً أهل حرب وعدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين، لما يعلمون من الخروج فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب النبي ﷺ، واستأذنوا في الهجرة، فقال:

«قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها». فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون، ويخفون ذلك، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب النبي ﷺ: أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة وامرأته بنت أبي حثمة، فهي أول ظعينة قدمت المدينة، ثم قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً فنزلوا على الأنصار في دورهم، فآووهم ونصروهم وواسواهم»[1].

وروى ابن هشام عن ابن إسحاق أنه ﷺ أمر أصحابه بعد بيعة

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص: ٢١ - ٢١١. سيرة زيني دحلان (ج ١ ص ٢٩٩ هامش السيرة الحلبية).

العقبة الثانية بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار[1].

وقد كان الأنصار نِعم الأنصار، يحبون من هاجر إليهم ويكرمونهم، ويواسونهم بعد تضحيتهم بالبيت والمال والوطن والأهل، ولقد وجد المهاجرون في إخوانهم الأهل والبيت والعون الطيب على العيش الكريم فقد أنزلوهم دورهم وبذلوا لهم أموالهم ومتاعهم.

ويروي علماء السيرة أن عبد الرحمن بن عوف نزل على أخيه سعد بن الربيع، ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت أخي حسان بن ثابت رضي الله عنهم. ونزل مصعب بن عمير على سعد بن معاذ... وكان يقال: نزل الأعزاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة، وذلك لأنه كان عزباً[2].

وتتابع المسلمون في الهجرة إلى المدينة، حتى لم يبقَ بمكة منهم إلا النبي ﷺ وأبو بكر وعلي بن أبي طالب وقلة آخرون، حال دون هجرتهم الضعف أو المرض أو الحَبْسُ.

قال ابن إسحاق: ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه

---

(١) سيرة ابن هشام ١٤٠ ص ٤٦٨.
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٧٩.

من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنهم قد أُجمع لحربهم. فاجتمعوا له في دار الندوة يتشاورون فيما ما يصنعون في أمر النبي ﷺ.(١)

ثم استقر الرأي بينهم على أن يأخذوا من كل قبيلة شاباً جلداً، ويعطوه سيفاً صارماً ثم يعمد إليه هؤلاء الشباب فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، ويتفرق دمه بين القبائل فلا يستطيع بنو هاشم أن يحاربوا قومهم جميعاً... !

ولكن الله الذي تعهد لنبيه أن يعصمه من الناس جعل كيد المشركين سراباً، وأعد لنبيه طريق الهجرة بعيداً عن متناول أيديهم... ! فقد نزل إليه الوحي يأمره بالهجرة وألا ينام تلك الليلة على فراشه الذي ينام عليه...

ومضى النبي ﷺ إلى صاحبه أبي بكر رضي الله عنه ليخبره أن الله أذن له بالهجرة، وأنه سيصاحبه في هذه الرحلة المقدسة...

كان أبو بكر يتوقع ذلك، وقد أعد لهذه الرحلة عدتها، واتفق مع النبي ﷺ على برنامج ملائم، وعاد النبي ﷺ إلى بيته ليكلف علياً رضي الله عنه بالنوم في فراشه الليلة ـ مع تعهد السلامة له بإذن الله ـ وأمره بأن يبقى بمكة بعده عدة أيام، ليعيد الودائع إلى

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٨٠.

أصحابها من المشركين الذين كانوا قد أودعوها عنده ﷺ ، وكان المشركون يستودعون أموالهم عند النبي ﷺ ، لثقتهم بصدقه وأمانته.

وعندما خيم الظلام وأحدق الشباب بباب النبي ﷺ ينتظرون خروجه لينفذوا مؤامرتهم، أكّد لعلي ما أمره به، ونام عليٌّ في فراش النبي ﷺ .

وبينما هم على باب البيت إذ خرج النبي ﷺ من بينهم بعد أن قرأ صدراً من سورة يس دون أن يشعر به أحد، وجعل ينثر التراب على رؤوسهم... ثم مضى إلى أبي بكر الذي سار معه وفق الخطة المرسومة نحو غار ثور.

وطار صواب المشركين عندما علموا خروج النبي ﷺ من بينهم وهم لا يشعرون، فانطلقوا يبحثون عنه هنا وهناك، وانتشروا في الطرق المؤدية إلى المدينة حتى وصلوا إلى غار ثور، حيث يختفي رسول الله ﷺ وأبو بكر... وسمع أبو بكر قرع أقدامهم حول الغار، فارتاع، فقال له رسول الله ﷺ : «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟! لا تحزن إن الله معنا».

وعاد المشركون بخُفَّي حُنين دون أن يصيبوا شيئاً وقد يئسوا من الوصول إليهما.

وكان أبو بكر قد أعد برنامجاً لرحلته:

فقد هيأ راحلتين، وقد اشترى النبي ﷺ منه إحداهما.

وكلف ابنه عبدالله ـ وكان ذكياً ـ أن يتسمع لهما ما يقوله المشركون عنهما بياض النهار ثم يأتيهما ليلاً بما سمع، حتى إذا انقطع بحث المشركين عنهما شرعا في سفرهما.

وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها قرب الغار، إذا أمسى ليطعما من ألبانها.

وكانت أسماء رضي الله عنها تأتيهما بالطعام كل مساء...

ولما اطمأن رسول الله ﷺ وصاحبه إلى انقطاع البحث عنهما، شرعا في الرحلة نحو المدينة... بينما كان أهل المدينة يترقبون وصول النبي ﷺ بين يوم وآخر ويخرجون إلى ظاهر المدينة ينتظرون، ثم يعودون دون أن يصل رسول الله ﷺ .... حتى إذا كان يوم وصوله... وظن الناس أنه لن يصل ذلك اليوم وعادوا إلى منازلهم، سمعوا تباشير وصوله فهرعوا لاستقباله.

وصل ﷺ إلى قباء بجوار المدينة المنورة، ونزل هناك عند كلثوم ابن هدم وأقام عنده ـ على بعض الروايات ـ بضعة أيام، وخلال هذه الأيام أسس أول مسجد أقيم في الإسلام والذي قال الله تعالى عنه: ﴿لَمسجدٌ أُسِّسَ على التقوى من أولِ يومٍ أحقُّ أن تقومَ فيه، فيه رجالٌ يحبون أن يتطهَّروا والله يحب المطّهّرين﴾ [التوبة: ١٠٨].

ثم تابع طريقه نحو المدينة التي سبقته إليها البشائر بوصوله... وخرجت المدينة لاستقباله ﷺ، وغرّد له ولائد بني النجار:

نحن جوارٍ من بني النجار
يا حبّذا محمدُ مِن جارِ

وقلوبهم ترقص فرحاً بمقدمه، وحباً له ﷺ...

ونزل ﷺ في بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قرب ناقته التي أطلق لها العنان، لأنها كما قال ﷺ: مأمورة!![1]

وهكذا تمت الهجرة، أعظم حدث في حياة الدعوة بعد البعثة!

(١) انظر تفاصيل خبر الهجرة: سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٨٧ ـ ٤٩٣، عيون الأثر: ج١ ص ١٨٢ وهو في صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار رقم (٣٩٠٥) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

٤ ـ المجتمع الإسلامي

لقد وصل النبي ﷺ إلى المدينة المنورة.

وبوصوله ابتدأ في حياة الدعوة الإسلامية عهدٌ جديد، تقف فيه الجماعة المسلمة، التي ظلت طيلة ثلاثة عشر عاماً في مرحلة إعداد وتأهيل، أمام مسؤوليات جديدة، إذ لم يبقَ أمام الدعوة لاستكمال إقامة المجتمع الإسلامي سوى خطوات... وإنها لخطوات هامة.

فبالهجرة توفَّر للدعوة: الأمة المسلمة التي بها يقوم المجتمع المنشود، وتوفرت الأرض الملائمة، التي يذعن أهلها لحكم الله ويرتضون شريعته.

وأمام هذا الواقع الجديد، وقف النبي ﷺ ليواجه مسؤولياته الجديدة، ويباشرها على ضوء ما يتنزل به الوحي عليه... فيقيم المجتمع الذي طالما صبر في إعداده، وينشىء الدولة الإسلامية التي تقوم على تطبيق شريعة الله في الأرض عبودية له عملاً بقوله

تعالى: ﴿إن الحكمُ إلا لله، أمر ألّا تعبدوا إلا إياه﴾ [يوسف: ٤٠].

* * *

إن الأساس الأول، الذي يقوم عليه المجتمع الإسلامي، ويلتقي عليه جميع أبنائه إنما هو (العبودية لله)، ولقد كان أعظم مظهر من مظاهر العبودية في شكله أو في أثره على حياة المسلم وسلوكه، إنما هو الصلاة، فليكن المسجد أول ركيزة لهذا المجتمع، يلتقي فيه أبناؤه كل يوم خمس مرات، يعبرون من خلالها عن عبوديتهم لله، ويعلنون عن تلاقيهم جميعاً على تلك العبودية، واجتماع قلوبهم عليها. ويكرسون ذلك بالاصطفاف جنباً إلى جنب بين يدي خالقهم، فقراء وأغنياء، أقوياء وضعفاء، بيضاً وسوداً: . . لا يفرِّق بينهم أي اعتبار تافه، ولا تمزق صفّهم المصطلحات الفاسدة.

ولذلك: فقد كان أول عمل بادر إليه النبي ﷺ، بعد وصوله إلى المدينة، إنما هو بناء المسجد، ذلك أنه ﷺ لما وصل إلى منازل بني النجار، وبركت ناقته في مربد يتيمين من بني النجار، بجوار دار أبي أيوب الأنصاري، نزل عنده وسأل عن المربد لمن هو؟ فقالوا: هو لسهل وسهيل ابني عمرو من بني النجار، وهما في كفالة معاذ بن عفراء.

روى البخاري ومسلم: أن النبي ﷺ أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى بني النجار، فقال لهم: يا بني النجار، ثامنوني بحائطكم هذا. فقالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله[1] (فأبى رسول الله ﷺ، حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير).[2]

قال ابن هشام: فأمر به رسول الله ﷺ أن يبنى مسجداً، ونزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب حتى بُني مسجدُه ومساكنه، فعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغِّب المسلمين في العمل، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه. فقال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبي يعمل
لذاك منا العمل المضلل

وارتجزوا وهم يعملون قائلين:

لا عيش إلا عيش الآخرة
اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة[3]

* * *

وبعد المسجد... كيف يتم جمع شمل الجماعة الإسلامية وتوثيق روابطها وغرس المحبة بين أبنائها مما يكفل قيام المجتمع

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار رقم (٣٩٣٢)، ومسلم في المساجد رقم (٥٢٤)
(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٢٣٩)
(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٩٦.

المتماسك المتين؟ إنها المؤاخاة... الوشيجة التي تجمع القلوب إلى بعضها، وتؤجج في القلوب مشاعر الرحمة والمحبة فيما بينهم، حتى يغدو المسلمون كالجسد الواحد فعلاً، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وبالمؤاخاة مواساة وتخفيف لألم المصاب عن الذين بذلوا كل ما يملكونه في سبيل دينهم بالهجرة، فقد دفعت الأنصار إلى بذل أموالهم لإخوانهم بقلوب مفعمة بالمحبة والرحمة نحوهم.

قال ابن إسحاق: وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال ـ فيما بلغنا ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل: «تآخوا في الله أخوين أخوين». ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال«هذا أخي»... وكان أبو بكر الصديق وخارجة بن زهير أخوين، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين[١]... وبهذه المؤاخاة تماسك نسيج المجتمع، وازداد قوة وشدة، وخفف الله بها آلام الإخوة ببعضهم، فإذا القلوب قد تآلفت وتحابت وتعاضدت، وبذلك غدوا قوة ترعاهم عناية الله وتوجيهه.

* * *

ومن أهم ما يحقق للدولة الإسلامية الناشئة ومجتمعها الجديد،

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٠٥.

الكيان المميز، ويُشعر المسلمين بتميزهم وشخصيتهم في دولتهم الجديدة، تلك الوثيقة التي استكتبها رسول الله ﷺ ، والتي كانت بمثابة الإعلان الرسمي عن نشأة الدولة الإسلامية، الخاضعة لنظام الحكم الإلهي، والتي يرأسها ويدير شؤونها النبي الكريم ﷺ ، واحتوت تلك الوثيقة تقرير طبيعة علاقة أبناء الدولة فيما بينهم، وعلاقتهم بغيرهم (كأمة وكدولة)!.

وقد اعتبر فضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «فقه السيرة» هذه الوثيقة بمثابة الدستور، لأنها تشمل جميع ما يمكن أن يعالجه أي دستور حديث، يُعنى بوضع الخطوط الكلية الواضحة لنظام الدولة في الداخل والخارج، أي فيما يتعلق بعلاقة الأفراد بعضهم مع بعض، وفيما يتعلق بعلاقة الدولة مع الآخرين[1]، وذلك استمداداً من المرتكزات الاعتقادية التي تقوم عليها تلك الدولة.

والوثيقة قد أوردتها كتب السيرة، ونصها طويل لا داعي إلى سرده هنا، وإنما نكتفي بعرض بعض فقراته بشيء من الإيجاز[2]:

(بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي ﷺ ،

---

(١) فقه السيرة ص ٢٠٨ ودراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل ص ١٥٢.

(٢) الوثيقة بكاملها أوردها ابن هشام في سيرته ج ١ ص ٥٠٠، ورواها الإمام أحمد في مسنده ج ٢١ ص ١٠ شرح البنا.

بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، **إنهم أمة واحدة من دون الناس**.

ـ المهاجرون من قريش، على ربعتهم (أي على حالهم التي كانوا عليها قبل الإسلام)، يتعاقلون بينهم (يدفعون الدية متعاونين فيما بينهم)، وهم يفدون عانِيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عوف... وبنو ساعده... (أي كذلك كل فئة من المسلمين مرتبطون فيما بينهم بارتباط اجتماعي رحمي عليها أن تتكافل في الدية وفك الأسير ونحو ذلك).

ـ وإن المسلمين لا يتركون مفرحاً (مديناً) بينهم، أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

ـ وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم (الظلم الشنيع الكبير) أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين. وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.

ـ لا يُقتل مؤمن في كافر، ولا يُنصر كافر على مؤمن.

ـ يهود بني عوف (وغيرهم ممن شملتهم الصحيفة بالذكر) أمة من المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته.

ـ إن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

ـ لا تُجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم (أي المسلمين واليهود) النصر على من دهم يثرب.

ـ من خرج من المدينة آمن، ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم. وإن الله جار لمن اتقى).

من خلال هذه الوثيقة، وانطلاقاً من العقيدة التي سكنت في قلب كل فرد من أفراد هذه الأمة الجديدة بدأت شخصية المجتمع الإسلامي بدولته وحكومته تبرز لتأخذ مكانها في هذا الوجود.

ولكأني بالمسجد يعبِّر عن انتماء هذا المجتمع إلى الخالق سبحانه وتعالى، وعن عقيدته التي تستقر فعلاً في قلب كل فرد من أفراده، وبالمؤاخاة الإطار الذي يحتوي أبناء هذا المجتمع ويضمهم إلى بعضهم في ظل تلك العقيدة، أما الوثيقة فهي تمثل إعلاناً عن ولادة هذا المجتمع الجديد المؤتمن على تنفيذ شرع الله الذي يهبط به الوحي يوماً بعد يوم، والمؤتمن على حماية الدعوة ونشرها بالوسائل الممكنة المنسجمة مع طبيعة الدعوة ومبادئها.

ولقد كان هذا المجتمع كفئاً لما انعقد عليه من الأمل، وفي المستوى اللائق لتحمُّل تلك الأعباء، كيف لا وقد تولاه الله بالعناية والتوجيه والإمداد؟

كان هذا المجتمع مبادراً إلى تطبيق ما أمره الله به، مندفعاً نحو التزام منهجه، متفانياً في سبيل دعوته يبذل لها ماله ودمه وروحه. . .

ولقد تحققت على يد هذا المجتمع أروع ما سطّره التاريخ من صفحات ناصعة، من فتوح وترجمة لكل معاني العدل والرحمة التي أنزلها الله وحملها في عنق هذا المجتمع.

ولقد واجه هذا المجتمع الجديد مسؤولية التغيير في أنظمة الحياة والمعيشة، وفق التشريع المنزل بالتدرج والحكمة، فكان موقفهم المبادرة إلى الطاعة والالتزام التام. بل لقد كانوا أعجوبة ومثلاً عظيماً في التزام الأمر والطاعة المباشرة.

أخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، أن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه أتى النبي ﷺ، وهو يخطب، فسمعه وهو يقول: «اجلسوا» فجلس مكانه خارجاً عن المسجد، حتى فرغ النبي ﷺ من خطبته، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال له: «زادك الله حرصاً على طواعية الله وطواعية رسوله» كذا في الكنز (٧: ٥٢) وأخرجه البيهقي أيضاً بسند صحيح(١).

وأخرج أحمد والبخاري في التاريخ وابن عساكر عن سهل العبشمي رضي الله عنه قال قال لي النبي ﷺ «نعم الرجل خريم

(١) حياة الصحابة ج ٢ ص ٦٢٧.

الأسدي، لولا طول جمته وإسبال إزاره» فبلغ ذلك خريماً، فأخذ شفرته فقطع جمته إلى أنصاف أذنيه، ورفع إزاره إلى أنصاف ساقيه[1].

كانت هذه المبادرة شأن أصحاب النبي ﷺ إزاء كل أمر أو نهي ينزل به الوحي أو يصدر عنه النبي ﷺ مباشرة لأن الله أمرهم بطاعة نبيه وجعل طاعة النبي بمنزلة طاعة الله فقال ﴿**من يُطِعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً**﴾ [النساء: ٨٠].

ولعل من أخطر المسؤوليات التي واجهها هذا المجتمع مجابهة المخاطر المحدقة بهذه الدولة الناشئة من خصومها المحيطين بها من كل جانب، وهم المشركون ومن وراءهم من الروم والفرس، أو من خصومها المجاورين لها كاليهود، أو من خصومها القاعدين في عقر دارها وهم أخطر الأعداء وأشدهم ألا وهم المنافقون. . .

ولكن المجتمع الإسلامي واجه كل هذه الأخطار بجرأة وقوة وحزم حتى كتب الله لهم النصر وفتح الله لهم الأرض وما عليها.

وأخيراً نقول:

إن هذه الأمة لن يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) حياة الصحابة ج ٢ ص ٦٣٠.

أهم المصادر والمراجع:

١ ـ التاج الجامع للأصول: الشيخ منصور ناصف دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة
٢ ـ الترغيب والترهيب للمنذري: تحقيق مصطفى عماره مطبعة البابي الحلبي / القاهرة
٣ ـ تفسير الطبري تحقيق: محمود عمر شاكر/ دار المعارف المصرية
٤ ـ تفسير ابن كثير: مطبعة الاستقامة/ القاهرة
٥ ـ تفسير النسفي: الطبعة الأميرية ببولاق
٦ ـ الجامع لأحكام القرآن: للإمام القرطبي / دار الكتب المصرية
٧ ـ حلية الأولياء: لأبي نعيم ط: دار الكتاب العربي ـ بيروت
٨ ـ خاتم النبيين: محمد أبو زهرة... طبع قطر/ بعناية الشيخ عبدالله الأنصاري
٩ ـ دراسة في السيرة: د. محمد عماد الدين الخليل/ دار الثقافة بيروت
١٠ ـ الزهد والرقائق لعبدالله بن المبارك: بتحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ط: مطبعة علي پريس مالبكاؤن/ الهند
١١ ـ السيرة الحلبية: للإمام علي بن برهان الدين الحلبي ط: المكتبة الإسلامية بيروت
١٢ ـ سيرة زيني دحلان: على هامش السيرة الحلبية ط: المكتبة الاسلامية بيروت
١٣ ـ سيرة ابن هشام: بتحقيق عدد من العلماء ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة
١٤ ـ صحيح البخاري وشرحه فتح الباري: المكتبة السلفية
١٥ ـ صحيح مسلم... تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي
١٦ ـ طبقات ابن سعد: لجنة الثقافة الإسلامية القاهرة
١٧ ـ عيون الأثر: لابن سيد الناس... دار المعرفة/ بيروت
١٨ ـ فقه السيرة: د. محمد سعيد رمضان البوطي الطبعة الثامنة/ دار الفكر
١٩ ـ في ظلال القرآن
٢٠ ـ محمد رسول الله: محمد رضا: طبع قطر/ بعناية الشيخ عبدالله الأنصاري

المحتوى